محمد البشير

تغريبة آل غسان



رواية

دار البشير

تغريبةُ آل غسّان
«لا المالُ يبقى.. ولا في اللّولاد خير»

محمّد البشير

***

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقــم الإيـــداع: ٩٩٧٢ / ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٢٧٨ - ٨٧٩ - ٨ :ISBN



****

إهداء..

إلى نفسي؛ فإنّها تستحق.

***

الفصلُ الأوّل

«قضيةُ البستان»

- ١ -

انتظر..

السّهامُ تملأ السماءَ من فوقنا، فكنْ حذرًا..

انظر.. كيف يتلاحم القومُ ويتناحرون! علام؟ تسألني.. لا تكنْ عجولًا، صبرًا..

كنْ يقظًا وأنتَ تسير خلفي، لا تطأ إلّا الموضع الذي أطؤه أنا قبلك، وأبْقِ ذهنَك متّقدًا، وبصرَك حادًّا..

انظرْ إلى الأشلاءِ كيف تتطايرُ في الهواء! وإلى الدّماء كيف تلفظُها الأرض رافضةً بلعَها!

إنّه الإنسان، أبديّ العنف منذُ عهد قابيل بن آدم وحتّى يرث اللهُ الأرض ومَن عليها.

انظرْ معي نحوَ الميسرة، أترى ذلك الذي يشقّ الصّدور بنصلِ خنجره، إنّه الفتى وهران بن غسّان، صغير هوَ على تلك الوحشيّة التي يُبديها، أليس كذلك؟ لا تكاد طبولُ المعركة تدقّ حتّى تجده طاعنًا قلبَ صفوف الأعداء بخفّة الشّباب وعصبيّة القبيلة، وشوق المتعطّشين للدّماء.. للدماء!

وهوَ على صِغر سنّه ورشاقة قدّه وخفّته؛ مُهابٌ، وذو حضورٍ طاغ، سرعته الشّديدة كانت سببًا لتلك الهيبةِ في قلوب أعدائه، إذْ إنّك لن تراه إلّا ونصلُ خنجره قد شقّ صدرك نصفين وانتهى الأمر!

ثعلبٌ يكنّونه بين أبناء قبيلته من آل وهران، وعلى أرضِ العرب، سُمعته لها صدًى مسموع بين القبائل، لذاته، لا لنسبه الشّر..

انظرْ للميمنة.. انظر

أرأيتَ هذا الذي دبّ أصبعيه في أعين خصمِه! نعم.. نعم، إنّه شديدُ الشّبه بالفتى وهران، أوَ تدري لِم؟ لأنّه أخوه الأكبر؛ رحمن بن غسان الوهراني.

أكادُ أقرأ ما يجول بخاطرك الآن، لا.. هُم ليسوا بقبيلةٍ ملعونة تهوى الدّماء وتتلذّذ بسفكها، بل على العكس تمامًا، فالوهرانيّون هُم أكثرُ القبائل سِلمًا في أرض العرب، وهُم أطول الناس نَفَسًا وأحلَمَهم، وأكثرهم جدالًا ونقاشًا، وأرغبهم في الحلّ السلمي، حتى طمّع ذلك فيهم الجاهلون، وجرّأ عليهم الأوباشُ في أحايين كثيرة، الوهرانيّون أشدّ الناس نفورًا من الحروب وميادين القتالِ، لكنّهم إنْ دخلوها لم يخرجوا منها إلّا وقد سفكوا آخرَ قطرة دم تسري

في أوردةِ أعدائهم، والقتلُ قتلٌ على كلّ حال، ولا يضرّ الشّاة سلخُها بعَد ذبحها كما قالت ذاتُ النّطاقين، فما الفارقُ إنْ مات القتيلُ ذبحًا أو مشقوقَ صدْر أو مفتوقَ العينين! هو في الحالين مقتول، فليكنْ كريمًا وليدعْ لقاتله أقصوصةً يروي بها في جلساتِ السّمر وحفلات الشواء.

والآن، أنتَ تعيقني عن الحديثِ بتساؤلاتك وتهكّماتك وقلة صبرك!

كنت أقولُ إنّ رحمن هذا..

أخفضْ رأسك بسرعة.. كادت تلك الحربةُ الطائشة أن تفتكَ بنا.

لكن.. أتظنّها طائشة؟ لا، إنّها مصوّبة بإحكام نحوَ هدف محدّد بنظرة ثاقبة، وها هي ذا قد أصابتْ كبِد المعنى بها وفتتته، انظرْ إليه كيف يتلوّى في الأرض من فرط الألم.. وكيف تسيل الدّماءُ الحمراء من جرّائها، ثمّ انظرْ معي نحوَ الذي رمى بها.. نعم.. إنّه هو بحق، وعيناك لا تكذبان.

دعْنا الآن من رحمن ووهران، فأنت في حضرةِ أبيهم؛ الشيخ غسان آل وهران.

* * *

حولَ المائدة المهيبة في دار آل بوسعيد التفّ القومُ ينهشونَ لحمَ الضّأن المشوي بنهمٍ وانتقام.

حينها، كانَ الأمرُ في طوْر النّقاش والمباحثات، لم نخطُ نحوَ ميدان الحرب خطوة، ولم يغضب الحليم بعد.

صرخَ الشيخ سلمان البوسعيدي في خَدَمه بعدَ صفير وتصفيق من يديه المدهنتين من تفسيخ اللّحم، فأتوا على أثره تتْرى، يحملونَ المزيدَ من أواني الكبس والبرياني والمندي والعصايد والهريس والمعاجين، والمعاجينُ هي لحمُ ضأن مقطّع نسائرَ طويلة، ومجفّف في الشمس أيامًا عدّة، ثمّ يخلطُ بالدهن ويُخزن، فلا يصيبه عطنٌ ولا عفن.

أمّا بعد..

بعدما دارتِ الأيادي حول المائدة، وتبعثرتْ صنوفُ الطعام المنظّمة، ولاكتِ الأفواه كلّ ما يمكنُ أن يُلاكَ ويُمضَغ، وبعدَ أن شَبِع القومُ وحمدوا الله وشكروا له فضلَه ونعمته التي رزقهم إيّاها من غير حولٍ منهم ولا قوة، وبعدما اصطفّ القوم في المجلسِ المهيب الممتدّ عن اليمين والشّمال كما أمرهم الشيخ سلمان، واتّكأ كلّ منهم على نمرقِه، وأسند ظهره زائغَ البصر منفوخَ الكِرش من دسمِ الطّعام، منتظرًا الأباريقَ المزخرفة للقهوة الصماء وصواني الحلوى اللّاذعة لتَفيقهم وتعيدَ إليهم وعيَهم وجديّة الأمر الذي قدِموا في الأصل من أجل تناوله والبتّ فيه؛ كان الشيخُ سلمان البوسعيدي قد خبطَ بعكّازه أرض المجلس الرخاميةِ فانتبه الجميعُ وأنصتوا:

- حيّا الله مشايخَ أرض العرب الكِرام الطيبين، سلامٌ عليكم أجمعين، وعلى نبينا الهادي الأمين، صلاة الله ورحمتُه وعلى آل البيت والصحابة والتابعين.

خيرُ الكلام الصّلاةُ والسلام كما قال الأقْدمون، فتناقلتِ الآذان ردودَ السّلام وتحيات الودّ والتّرحاب «دامَ عزّك يا شيخ سلمان، بيتُ خيرٍ وجود وكرم..»، وتمتموا بالصّلاة والسلام على رسولِ الله البشير.

ثمّ انتحى الحديثُ بهم- وبنا- سريعًا نحوَ صوت سالم الدوسري وهو يمصمصُ أصابعَه من أثر الحلَوى، ويقول مدافعًا:

- إنّ أحدًا من الدواسر لم يرتكبْ جُرمًا ولا انتهك عرضًا.

فقاطعه صوتٌ من المجلس:

- يا شيخ سالم، ما لهيك اجتمعنا، ولا رميناكم بالعيب لا سمح الله.

وأمّن صوتٌ آخر، بلسان قبيلةٍ أخرى:

- إي والله صِدْق، جينا بسّ نسمع أصل الموضوع، والشيوخ الكرام- عزّ الله قدرهم- بَيحكمون من صاحب حقّ، ومن غرّر بُه إبليس الرجيم!

فعادَ الصوت للشيخ سلمان صاحبِ الدّار، والمبادرة الطيبة والوجه الحسن:

- صحّ لسانك شيخ مأمون الجبّالي، والله ما جينا نرمي بالباطل، ولا نسمع حكاوي النّسوان، جينا كلّنا راغبين سلْم وخير، وإنْ شالله ما يصير غير الخير، بسّ نسمع ويش صار.

فعادَ سالم الدوسري وقد سرتْ بدمائه دغدغة مُخدّرة من طيب الكلام وسماحة الوجوه:

- الأصلُ يا شيخ سلمان، ويا مشايخَ أرض العرب الكرام، بستانٌ قديم يمكن أقدم من مجلسِنا، تعرفونه كلّكم؛ بستان حمّاد الدوسري، ناحية المسجد القديم، قِبال دوّار بنت الشّيخ عمران بين الدواسر وآل وهران! المهمّ، البستانُ قديمٌ قديم، وكبير ما شالله تعرفونه كلّكم، والخير فيه ما يكفيه قول ولا شرح، نخيل تمور ونرجيل وأشجار بيذان وزيتون وصبّار ولُبان، يعني ما شالله ما قصّر (وضحِك، وضحِك الشيوخ الأجلّاء)، كان البستانُ للشيخ حمّاد الدوسري ولولاده من بعْد، وخال البستان أيامها كان نفرًا بسيطَ الحال من فقراء الوهران ما دري وش اسمه.

هنا سُمِع وقْعُ العرجون على الأرض، واتّجهت الأنظارُ ناحية الشيخ الجليل مُهاب الطلّة مسموعَ الكلمة، غسّان بن رحمن شيخُ الوهرانيين، الجالسُ منذ بداية الأمر يُنصت، ويراقب وقْعَ الكلام على النّفوس واستجابة الأوْجه بالتّعابير، وقال بهدوئه المعهود، وسمْته الوقور الذي لا يخْلو من طُرفة لطيفة محبّبة:

- الخالُ يونس آل وهران، طيّب الله ثراه، وكلّكم يا مشايخنا الكرام تعرفون مَن هو يونس آل وهران، وكيف ماتَ، وعلاش ترك أولاده والأحفاد بعد.

فسرَتْ في المجلس الممتدّ عن اليمين والشّمال صدَى الهمهمات، وكلمات، منها «يونس والله نِعْم الرجال»، ومنها «ترك لولاده المال والسّيرة»، ومنها «رِجّال كفو، عصامي، عاش خال ومات عزيز الحال».

فقال سالم الدوسري محتجًّا:

- كيفَ مات عزيزَ الحال، ومِن وين جاب المال؟ إلّا بمدّ اليد والاعتداء على البستان حقّ ولاد حمّاد الدوسري ومرته المسكينة أمّ البنين!

فعادَ صوتُ الشيخ غسان مرّة أخرى:

- يا شيخ سالم، الله يرحم والدك، صنْ لسانك عن الخوض في الأموات، ويونس ما عرفناه لصّ ولا محتال، كان خال بادي الأمر، وحمّاد ما كان يفلح ولا يقلح ولا يعرف في الفلاحة زين من شين، وتعرفه كما الكلّ يعرفه كان رجّال حقّ وصاحب فضل، ومِن طول عهد يونس في خوالة البستان وهبَ له حمّاد نصَ البستان شراكة بينهم، ذا بالأرض وذا بالجهد والعرق، واتوزّع المحصول عليهم مواسم ومواسم، ومع الوقت صاير تزيد أرباح يونس وأمواله، عاد خلّص حمّاد وافتكّ منه وصار البستان بستانه، حق.

- مِن وين جيت بذا الكلام يا شيخ غسان؟ مين شاهد؟ وين العقود؟ والله هذا كلام خرابيط وكذب ما عرفناه عنك يا شيخ الوهرانيّين!

هُنا، علا صوتُ الاعتراض والزجر بين جنباتِ المجلس منبّهين سالم الدوسري ألّا يتطاول ويخرج عنْ حدود الأدب مهْما خالف الكلامُ المنطوق هواه، وليذكر هيبةَ محدّثهِ في المقام الأول ووقار لحيتِه البيضاء وعمامته التي لم تمسّ ترابَ الأرض إلّا للسجود لباريها جلّ جلاله، فاحتقن وجه سالم، واستحى، وقال بنبرة أقلّ حدّة وأكثر احتجاجًا:

- أعتذرُ منك يا شيخنا، والمقامُ محفوظ، لكنْ والله ما يستسيغ عقلي الكلام، لو في بسّ شاهد واحد يقول رأيت، والله ما أترك المجلس إلّا وحبّيت على نعالكم واحد واحد، لكنْ حتى مرته شيخ حمّاد ما تعلَم عن الموضوع شيء، لا شراكة ولا يحزنون، والموضوع على قِدمه حديثُ بعْد، لأنّ اللولاد اللّي كانوا في الأمس عيال اليوم شبّوا وخطت الشّوارب في وجوههم واللحى، وصاروا يسألوا ويفتشوا يمّا وين مال أبوي؟ والمرة ما تِعرف شيء، ما تعرفْ إلّا إنّ الخال يونس كان يفلح البستان ويبعث لها كلّ حصاد جوالين أو ثلاث حسبَ المحصود، ومال بسيط كلّ اكتمالةِ بدْر، ما يغني لكنْ يتوه في باقي أموال المرحوم حمّاد فتقولُ الحمد لله، وبعد وفاة الخال يونس صار أولاده يفلحون البستان، وجزاهم الله خير، سايرين على درب أبوهم بالجوالات والمال البسيط كلّ بدر، لكنّ اللولاد غير أمّهم، والجوالات والمال اللي كان يقرّ عين

المرة ما راضيين بيه اللولاد، ودايرين يسألوا صدقة واللّا حقّ؟ ومين لهم غير شيخ الدواسر؟

فقال الشيخُ غسّان مجيبًا:

- ما لنا دخل إذا كانت المَرّة بتعرف باللّي صاير بين المرحومين واللّا لا، ويش دخلنا بين زوج وزوجته، والنّسيان وارد بعْد، وأمّ البنين مشهورة بالسذاجة ولا يؤخذ منها قول قاطع، ولا يُعتمد عليها في شهادة! وكيف مانت مسئول عن أمّ البنين وولاد حمّاد آني عادني كبير الوهرانيّين وما لولاد يونس بعد ربّ العالمين حدَا غير شيخ غسان، ويشهد السّميع العليم أنّي لا صاحب منفعة ولا البستان تخصّني فيه تمرة واحدة!

وعادتِ الهمهماتُ تسري بين الشّيوخ، وسرى مِن بينهم صوتُ سالم الدوسري يُؤمَنّ على ذمّة الشيخ غسان النقيّة، وعلى خلوّ ذمّته هو الآخر من أيّ مطمع أو مصلحة، فما هما إلّا كبيرَا قومهما قد تعلّقت في أعناقهم أغلالُ المسئولية وحِمل الأمانة وجلب الحق، ولا شيء غير الحق.

وقال قائلٌ في حضرة المجلس المُهاب الممتدّ عن اليمين والشمال:

- لو يأذنْ لي شيوخُ أرض العرب الكرام في الكلام وإبداء الرأي، أرى أنْ نأتي بالخصمين في مجلسٍ عاجل؛ أولاد يونس آل وهران وأمّ البنين وولاد حمّاد الدوسري، ونسمع القَول مِن الجميع، ويش يعرفون، ويش حجّتهم، يمكن سبحان الله غابت عن حدَا من مشايخنا الأفاضل شيخ غسان واللّا شيخ سالم حادثة ولا تفصيلة قد تكون مهمّة ويختلف بيها الحكم، واللهُ شاهد أنّا ما اجتمعنا إلّا لسدّ كلّ مدخل على إبليس الرجيم، ولإعطاء كلّ صاحبِ حقّ حقّه، ويش رأي مشايخنا؟

وبعدما أومأ الشيخُ البوسعيدي مستحسنًا الرأيَ المطروح، ورضي به الوهراني والدوسري، وافق الشّيوخُ جميعهم واتّفقوا على الاجتماع من جديدٍ في دار الشيخ مأمون شيخ الجبّاليين بعد ثلاثة أيام، وهو ما يوافق يومَ الجمعة.

* * *

وفي الغدِ البعيد ننطلق..

خذْ بيدي وتشبّث، ولا تمعنِ النّظر في الخرابِ المحيط بنا من كلّ مكان، إني أخاف عليك من الحَزن.

هكذا الأيّامُ.. دوَل.

وهكذا الإنسان دومًا.. مفسدٌ فيها.

انظرْ إلى تلك الزّرائب، واعْذرني على تجاهل مُفردة الحظائر؛ لأنّها أرقى من الوضع الحقيقي للزّريبة التي ترعى فيها مواشي وبهائمُ شيخ غسان، انظرْ

كيف كانت، وإلى أين آلَ مآلها!

كيف تعكّرتِ المياه في مرابط الإبل، وكيف تدنّس التبنُ والبرسيم بالدماء، وكيف خارت النّيرانُ والأبقار من اللّهيب الذي باغتهم من أسفلَ منهم بعد هجمة العسس.

نحنُ في الغدِ البعيدِ البعيد، بعيدٌ عن الحاضر حيث كنّا في خضمّ الجولة الأولى من السّجال الذي غدَا أنشودةً يعزفها المغنّواتية في ليالي السّمر وحفلات الفخر، ولعْق أحذية الكِبار، وبعيدٌ عن الماضي حيث ابتدأ الأمر، وانعقدتْ جلسات وحلقات وندوات دارت فيها نقاشاتٌ ومهاترات ونزاعات.

نحنُ في أرض العرب، في نواحي آل وهران، في أرض كبيرهم غسان، وبالتحديد في زريبته الكبرى، بعدما أحالتها نيرانُ عسس مُلكستان ومحاربو الدّواسر إلى خراب ورماد يذروه الرياح

وهو هناك..

أعلمُ أنّ النظرَ في تلك الظّلمة المدْقعة صعبٌ ومرْهق، فالسّماء من فوقنا بخِلت ببدرها ونجومها، فهي ظلماءُ مُقفرة، والرمادُ الذي تلطّخت بألوانه الكالحة أرض الزريبة وجدرانها المترامية زادَ الظلمة والوحشة، وجثث الأنعام المتفحّمة النّافقة المترامية في كلّ مكان حولنا ينفّر العينَ من النظر، ولكنْ تحامل على نفسِك قليلًا، وأمعنِ النّظر.

إنّه هناك..

متوارٍ في حضن صغيرته فُتنة، ذات الستة عشر ربيعًا، تضحك ببلاهتِها المعهودة وتأخّر ذهنها الذي أتعسَه لسنواتٍ ستّة عشر، وتلعب بأصابعها النّدية في هِباب الرماد على الأرض والجدران، وتلطّخ به وجهَ العجوز المتوارِي بين أحضانها اليانعة باكيًا من سوء المآل وتقلب الأحوال.. وتضحك!

آهٍ يا شيخ غسان..

أينَ القبيلة التي حاربتَ من أجلها؟ وأين الأموالُ التي أفنيت دهرًا في عزّها؟ وأين البنين والبنات؟ أين رحمن ووهران ومُهرة؟ رحلوا جميعًا؛ كلّ في طريق، ولم يبقَ لك من نطفاتك الأربعِ إلّا معيوبُهم.. فُتنة!

ومَن في ذلك الخراب المحيط بك مِن كلّ اتجاه قد ينشدُ لك الأناشيد.

*****

- ٢ -

وفي ميدانِ المعركة حيث كنّا، انظرْ معي هناك..

كانت حركاتُ ابنيْ غسان وأسلوبهما في القتال يشير كثيرًا إلى البيت الذي

نشئا فيه سويًّا، وترعرعَا تحتَ سقفه الخشبي، إذْ كان كبيرهما؛ وهو رحمن الوهراني، ما إن يخطّ بقدميه نحو الميدان، ويستلّ سيفه من جرابه إلّا ويطيح بقاتليه يمنةً ويسرة على مذهبٍ غير المذهب المألوف، يعملُ فيهم السيف بوحشيّة وغيظ، يدبّ نصله في المفاصل فتنخلع، ويسفح بحدّ خنجره الأوردة ومواطن الضعف، يصرخ بالوجه المكفهرّ، ويصيح حتى تكاد أوردة عنقه التي تبدو كأغصان شجرٍ أن تنفجرَ من التصلّب والاحتقان، وهو على سيرته تلك مُهابٌ يُخاف جنبُه، لا يُداس له ظلّ، ولا يرد له في الأمر قول!

وأمّا وهران، الثعلبُ كما يسمّونه في أرض العرب، فلقد جُرَّ إلى ذلك الأمر جرًّا، وكأنها الغريزة التي تدْعوه إلى البقاء والنّجاة، واستخدام الحيلة والدّهاء وتوظيف العقل لتفادي الشّراك والهلاك، كانت الدنيا في أعين الفتى وهران غابةً كبيرة، غابة قد ينجو منها الضعيف إن كان ذكيًّا، ويسقط فيها القويّ مصروعًا إن كان بلا عقل.

وبالسّيْر على الفرعين النافرين، حتى نصلَ إلى الغصن الأصيل سويًّا، نجد أنّ البيت الذي شبّ فيه كلاهما لم يكنْ كما تعشّم الناس وتوهّموا، لم يكن بيت كبير الوهرانيين، وأحد أغنى شيوخ أرض العرب، بيت الشيخ غسان؛ بل كان سجنًا، كان حفرة من حفر النار، وكانت بوابته الخشبية تطلّ مباشرة على الجحيم.

وفي البيت العظيم ثمّة غرفةٌ بعينها، لا يدخلها إلّا الخاطئون، المغضوب عليهم، والضّالون!

ولطالما زار الولدان الغرفة، وخرجَا منها بأيدٍ مُرتعدة، وجلودٍ مدبوغة بزرقة وخَضار، ووجوه تائهة المعالم، وأعين زائغة الأبصار، وأقدام تزحف ولا تقوى على وطء الأرض.

كان غسّان وحشيًّا، وكانت فيه بذرة صغيرة مدْفونة في تربةِ قاعِه المظلم، بذرة شبّت في الظلام وترعرعتْ بدموع أطفاله وصراخ زوجتِه المرحومة مرارًا، تلك البذرةُ كانت تحوي بداخلها عالمًا كاملًا مظلمًا، كأنّه غيهبُ جبّ عميق، بذرة كلّما ارتوت جعلت من تصرفات الشيخ الحكيم مدْعاةً للتعجّب، ومثارًا للسؤال، لم يفعل ما يفعل؟ أينَ ذهبت حكمة الشيخ الحكيم؟ وأين حِلمه وعطفه؛ وهو المعروف بين الناسِ بالرحيم؟ وأين ورعُه ودينُه ومحبّته لسيد الأوليا؟ ثمّ السّؤال الأهمّ والأكثر مَثارًا للحيرة والنفور؛ ما الدّاعي لكلّ هذا؟ لِم؟ ما الذي حدث؟ وما الذي اقترفه الصّبيان؟ ولن تجدَ في الإجابة إلّا تصرفات خائبة، كتلك التي تصرفنا مثلها حين كنّا في مثل أعمارهم.

هناك تفسيران لا أدري أصوابٌ هما أم لا، سأشاركك إيّاهما، ولك الحكم؛ أمّا الأول، فهو أن منظرَ الفتيان في سنّ المراهقة عمومًا يثير سخطَ غسان وضيقَ صدره، يزعجه لون الشحوب وملامحُ البلاهة والغباء المبكّر، يشمئزّ من

هيئتهم التي توحي إليك بأنّه مراهق قد اختبر لذّة الاحتلام وإدمان العادة السّرية ولا يفكّر إلّا في الجنس، ثمّ هوَ لا يحب تلك الشوارب الكالحة والزّغب الآخذ في الزّحف على الذقن وأعلى الذّراعين، لا تتحمّل أذناه تلك النبرة التي لا هي بصوتِ طفلٍ صغير ولا شابّ ناضج، كأنّها نغمة نشاز تتمنّى لو توقّف عازفها عن جرح أذنيك الرقيقتين.

وأمّا الآخر، فلِأنّ غسّان كان ذا طابعٍ لامَه عليه الكثيرون، إذْ كان كثير التّغاضي سريع التّسامح سهلَ المعاملة مأمونَ الجانب، حتى إذا زادَ الأمر عن حدّه أتت غضبته في موقفٍ واحد تحمّل غليل كلّ المواقف السّائرة، فتجدُه قد أوشك على إحراق البيت ذات غداةٍ لأنّ مِلحَ الطّعام كان زائدًا، بالطّبع ليس ذلك هو التّفسير المنطقي، بل إنه قد احتمل الكثير، واختزنَ بصدْره ما اختزنَ من المواقف والأخطاء والعثرات، حتى تعثّر تعيس الحظّ أمامه في مِلح طعامٍ أتى زائدًا فكانت القشّة التي قصمتْ ظهر البعير!

لا أدري إنْ كان أيٌّ من التّفسيرين السابقين هو الأصح، حتى وإن كان كلاهما خطئًا، فالمهم، أنّ ابني غسّان قد ذاقَا الأمرّيْن تحت سقف دار الشيخ غسان الخشبية، والأهمّ أنّ خلال مراحلِ العمر وتقدّم الفتيان في طور الشباب وتقدّم غسان في طور الشبيبة، كان الفتيان يشعران تجاهَه بالحنين والرأفة، مع كلّ صفعةٍ نادرة يهوي بها غسان على وجْه أحدهم يستشعر الفتى مقدارَ ما فقد أبوه من عافيته، وكيف أنّ الزمان قد جارَ عليه واعتدى، وكان غسان أيضًا كلّما دارت عجلةُ الزمان شعُر تجاه ولديْه بالأسف، وتمنّى لو دارت عجلة الزمان للوراء، لكانَ هدّ بيديه تلك الغرفةَ الملعونة، واقتلع بغضبة بذرته الرّجسة، ولكن، أنّى لعجلة الزمان أنْ تتوقّف، وأنى لها أن تعود للوراء؟!

* * *

حلّت الجمعة.. وعلى المنبر الخشبيّ العتيق بمسجد آل البيت الواقع على مرمى حجرٍ من بيت الشيخ مأمون الجبّالي في نواحي الجباليّين؛ وقف الشيخ الجليل مخضّبَ اللّحية أحمرَها تهتزّ مسبحته الكهرمانية في يُسْراه، وأصابعُ يمناه ترتعش من كِبر سِنّه وهي قابضةٌ على مقبض المنبر الخشبي، وقال فيما قاله قبيلَ الدّعاء وإقامة الجماعة: يا معشرَ المؤمنين، ويا قبايل أرض العرب، الله الله في نفوسكم، الله الله في وحدتكم وعصبتكم وكلمتكم، الله اسمه الحق، والحقّ أحقّ أن يُتبع، الحقّ والحقّ قوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل..) الحقّ والحقُّ يقول (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله..)، فالله اللهَ يا عِباد الله في نفوسكم وأموالِكم وعُصبتكم، اللّهم أرنا الحقّ حقًّا وارزقنا اتّباعه، وأرِنا الباطلَ باطلًا وارزقنا اجتنابه، وصلّى الله على الذي لو أنفقَ ما في الأرض جميعًا ما ألّف بين القلوب، ولكنّ الله ألّف، وقوموا إلى الصلاة.

صلّى المسلمون وانتشروا في الأرضِ يبتغون من فضل الله، وتحلّق في

ساحة المسجد كِبار القوم يحكّمونَ بين الناس فيما شجروا فيه، آل عريمي وآل بوسعيد والجباليين، واستند الشيخ غسان الوهراني على وسادةٍ يحتمي بها من قسوة الأرض على ساعدِه، ومِن خلفه كان ولاد الخال يونس يستظلّون به، وامتثل بين الشّيوخ الكِرام اليافع كبيرُ قومه وحكيمُهم سالم الدوسري، ومِن خلفه وقفَ ولاد حمّاد الدوسري يستأذنون من الكِبار دخولَ أمّهم أرملة حمّاد بعد انتظارها في مصلّى النساء؛ فأذنوا لهم، فلمّا دخلوا بها وأجلسوها استترتْ بين صبيانها واكتمل بحضورها المجلس.

تأذّن الشيخ سلمان البوسعيدي من الشيخ مأمون بالكلام فأذنَ له شاكرًا أدبَه رغمَ السن والمقام، فقام وحمدَ الله ثمّ أثنى عليه وعلى رسولِه الكريم، ودلف صُلبَ الموضوع وعصب الأمر فقال:

- الحين، وبعدَما اكتمل مجلسُنا بحضور أصحاب الشّأن من القبيلتين، با نسمع من ذا ومِن ذا، ونعزل- والمقام محفوظ- شيوخ القبيلتين عن الدفاع والانحياز لفريق عن فريق، كن الوهراني مو وهراني والدوسري مو دوسري، وبا نسمع حكمهم إنْ شالله وسط حكم مشايخنا، مشايخ أرض العرب.

دارتِ الأعين في الاتّجاهين دورة، ثمّ عادت فحدقتْ في أعين ولاد الخال يونس، وبالتحديد بكرية أحمد، ثمّ قال البوسعيدي:

- خلا يابو حَمد، يرحم والدك كان رجّال زين تشهد له أرض العرب كلّها بالسيرة العطرة والوجْه البشوش، خلا نسمع منك ويش قولك في قضية البستان؟

فانتصب عود أحمد ولد الخال يونس الوهراني، وهمّ بالحديث ولكنْ فزعَه صوتُ الدوسري الغضوب قائلًا:

- يا جماعة الخير ما بديناها بخير إذا سمعنا المدّعَى عليه قبل المدّعي!

كان قوله كأنّما جمرة أُلقيت في بِركةٍ من نيران الإغريق فانفجرتْ على إثرها الصيحات والاعتراضات واشتدّ اللّغط وتاهت الكلماتُ وضلّت المعاني الطريق!

ولكن، أعادَ الشيخ مأمون- كبيرُ المجلس وصاحب الضيافة- السكونَ والهدوء، وأحلّ قومه دار الرّشاد، ثمّ ابتسم إلى الشيخ غسّان وكأنما يتحسّس منه تغاضيًا وعفوًا، وبعدما وجد من الرجل الوقورِ ضالّتَه أشار إلى أحمد وِلد الخال يونس الوهراني فعادَ إلى مجلسه وقام من خلف سالم الدّوسري بكري حمّاد الدوسري يرفل في إزارٍ مُسبلٍ، وشعرُ رأسه يتهادى على كتفيه، وكان اسمه رشاد، وهو على كِبره بين إخوانه صغيرٌ بين ولاد الخال يونس الوهراني لم يبلغ الرشد بعد ولا استوى عوده الأخضر.

قال الفتى رشاد:

- البستان مال أبوي، كابر عن كابر، ولا أنا ولا حدّ من إخواني شاهد على تلك البيعة أو الشّراكة، ولا خبّرنا بها أبوي ولا وصّى، وذي أمي بعد، لا سمعت ولا شافت.

قامتِ الأمّ بعدما استنهضها بكريّها باكيةً فتعجّب مشايخ العرب مِمَّ البكاء؟ فقالت والنشيج يُخفي معالم الحروف:

- لا سامحَ اللهُ الخال يونس ولا ولاده، ولا سامحكم يا مشايخ العرب، ويش للمرة غير البيت تتعزّز فيه وتستكن، والله قال (وقرن في بيوتكن) والحين بعد هذه الشيبة تخرجوني من الدار في صحاري لظى ونوق جافلة، لا سامحكم الله.

فتبسّم مشايخنا من سذاجةِ المرأة وقلّة حيلتها، وواسوها بالكلمات الطيبات، وذكر محاسن زوجِها المرحوم فهدأت وعادتْ إلى ما خرجت في الأصل من أجله، فقالت:

- القولُ كما قال رشاد ولدي، لا زايد ولا ناقص، لو كان المرحوم شارك الخال يونس في البستان لكان عرفت، لكنْ لا خبر جاني ولا مرسال وصل، والمرحوم كان يحاكيني على الدّوام وما يخبي عنّي سرّ، ولا يكتم عنّي أمر مهمّ مثل البستان!

هنا، استأذن أحمد ولد الخال يونس بالكلام فأُذِن له فقال:

- يا أمّ البنين، ما بين الراجل ومرَته ما يعلمه إلّا الله ولا نجادلك فيه، لكن كيف ما كان يكتم المرحوم عنك سرَّ؛ وتجارتُه اللي كانت بقوافل ملكستان في العام اللي فاضت فيه روحه لباريها راحتْ وعادت، وما كان عندك بها علم لوْلا أبوي يونس ما كانت وصلتْ أرباح المرحوم من التجارة لحدّ عندك! والجميع في أرض العرب يعرف إن الشيخ حمّاد- الله يرحمه- كان تاجرًا بالأساس والتجارة مهنته، ورحلة ملكستان كان المرحوم حمّاد يعدّ لها قبلها بشهور، وكان يحاكينا عنها كلّ ما يزور البستان كأنها أول تجارته، أمّا البستان كان أمرًا فرعيًّا، وما كان يوليه اهتمامًا ولا رعاية إلّا بعين أبوي الله يرحمه والمسلمين، فإذا ما عندك عِلمٌ بالأصل كيف بيكون لك عِلم بالفرع!

لاقى الرأيُ استحسان مشايخنا، وأُخذَ في الحسبان، خاصّةً بعدما أتى الرد المتهلهل من أمّ البنين بأنّها كانت في غياهب الحزن لا ترى في الدنيا الطريق، ولا تذكر من عوارضها شيئًا!

ثمّ استأذن وِلد الخال باستئنافِ حديثه، فأُذن له، فأردف:

- أمّا نحن فكنّا شهودًا على قولة الشيخ حمّاد بمشاركة أبوي في البستان لأننا كنّا نفلح البستان معَ أبينا يوم بيوم، وما كان وحده والجميع شاهد، وكنّا في الغداة والعشي نحسب للّيوم اللّي يكون البستان خالص لنا من دون شريك،

نجمع المحصول وندفع حصّتنا من الأرباح لتسديد حصّة الشيخ حمّاد، حتى تمّ البيع في العام اللي حضرته الوفاة، وحفظًا للودّ والجميل خلّى أبوي الحصّة ثابتة لا تنقص تمرة ولا حبة شعير، يرسلها كلّ حصاد لولاد المرحوم وأرملته أمّ البنين ومعها ما يفيض بيه الفتاح العليم من أموال، ما نقول صدقة ولكنْ على وجه حِفظ الود ووفاءً بالعهد وإكرامًا للشيخ الكريم اللّي تفضّل علينا، وكان باب السعادة ومفتاح الخير، ومات أبوي ومشيت أنا وإخواني على العهد من بعده تنفيذًا لوصيته، والحصّة ثابتة والأموال بعد، لا ذا نقص تمرة ولا ذا نقص درهم، والربّ شاهد، والسلام.

فجأة، خطفت الأنظارَ الحركةُ المباغتة التي قام بها رشاد بن حمّاد الدوسري وجحظت منها العيون، إذْ هجم الفتى الصارخُ على أحمد ولد الخال يونس وهو يسبّه بأقذع السّباب، ويقول: ولاد الدواسر يأخذون صدقة يا ولد المومس! والله إنّك لصّ، وأبوك لص، ملعونين يا عيلة الدّوايث!

لم يردّ وِلد الخال ما سمِع من السّباب بمثله؛ لحفظ حرمة المسجد، وإكرامًا للحاضرين الأجلاء ولأمّ البنين، ولكنّه ردّ الهجوم بالصّفع واللكمات، حتى حال بينهما مشايخنا، وفتقوهم عن بعضهما البعض، وأجلسوا كلّ في زاوية ليهدأ.

انتهرَ الشيخ غسان ولد الخال يونس بشدّة على صفعه للفتى ولكْمِه له، وطلب منه الاعتذارَ لأمّ البنين عن عنفوانه وغلظته، أمّا سالم الدوسري فأمر المشايخ بالإدلاء بالرأي والفصل في القضيّة والتغاضي عن سفاهةِ الصّبيان كما أطلق عليها، وسمعنا الآراءَ تدور في المجلس حول السّيرة الطيبة للخال يونس والأولاد من بعده، وما رأى القوم من قوّة حجّة وبرهان على خفّة عقل أمّ البنين وعدم الأخْذ بشهادتها، وكان مِن العادل والبديهية بمكان أن يحكم شيوخ قبايل أرضِ العرب بأحقيّة البستان لولاد الخال يونس الوهراني وثبوت الحصة الموصى بها وقت الحصاد، وقد بدا الحكمُ لكِلا الفريقين غيرَ مُرضٍ ولا عادل، فلا الوهرانيّون رضوا بفرض ما تطوّعوا به من قبْل وإلزامهم به، ولا الدّواسر رضوا بالتخلّي عن أحقيّة البستان!

وكان هنا التوقيت المناسب ليعمل كلّ كبير قبيلةٍ بمقامه من قبيلته، ويلزمهم بالسمع والطاعة، وعليه فإنّ غسّان بطلَ حكايتنا قامَ بما عليه وانتحى بولاد الخال يونس جانبًا وأمرهم بالامتثال إلى ما أمر به مشايخنا من حكم، وما رأوا فيه بأنّه رادع للخلاف، وقاصمٌ لظهر الفُرقة ومخمدٌ للفتنة، وعليه كذلك انتحى سالم الدوسري واضعًا كفّه على كتفِ الفتى الهائج ليهدّئ من روْعه، وقال بنبرةٍ آمرة لئن لم تنتهِ لتكونن من الخاسرين، وقبّل رأسَ أمّ البنين معتذرًا عن خروجها وشهادتها، وأمرها باحتواء أولادِها والانتباه لهم، ولكنّها كانت في معزل عن الكون بأسْره، لا همّ لها سوى الصّلاة والتسبيح والإنصات إلى حكاوي الأولاد التي تمصمص شفاهها بعدَ إنصاتها، وتنهال عليهم بالدّعوات بالخير والبركات!

وهنا- يا قارئي- كان كلّ شيء يسيرُ في منحى يبشر بالخير، اتّفق الناس، وألزم كبار القوم كلمتهم على ذويهم وتعهّدوا بوأد الفتنة وإخمادها والامتثال إلى ما أمر به مشايخنا.. فما الذي جدّ في الأمر، وساق محاربي الوهرانيّين والدواسر نحو ميدان القتال؟!

***

وفي الزريبة المحترقة، حيث غسّان الباكي بين أحضان ابنته الناهدة فُتنة.. هجم جندٌ من عسس مُلكستان بغتةً على الزّريبة المظلمة، فزِعت الفتاة ذاتُ العقل المتأخّر، واضطربت من صوت الاقتحام، إلّا أنّ غسّان أحكمَ راحةَ كفّه على فمها فكتمها، وحال بين صراخها وآذان العسس.

كان المناخُ العامّ- رغم وعورته وثقلهِ على قلبِ غسان- يبتسم له، الظلام دامس مدقع، وأجيجُ النيران في الخارج، وصياحُ النّسوة ساهمت في إخماد صوتِ حركة غسان وابنته في الدّاخل، ومربط خيله الخاصّ كان متواريًا عن الأنظار وصالح للاختباء، ثمّ إن المربط ليس عنهم ببعيد، والظّلام الحائل بينه وبين عسس ملكستان كان حليفَه، وجثث الحيوانات النافقة ابتلعَها الظلام فتعثّرت فيها العسس، وتقلّبوا عن اليمين والشمال ما أتاح الفرصة لغسان أنْ يُهرَع بابنته نحو المخبأ بيُسْر وأمان.

وحين تمدّد حيث تموْضَع، تبيّن له أنّه خسِر خيلَه فيما خسِر من النّعم، وحين نظر تجاه الكوّة المقابلة له في جدار الزّريبة وجدَ القمر قد اكتملَ وأنار من أجله فقط، وكأنما يهمس له معاتبًا تحتَ ظلال الليل، وأعينُ فُتنة كانت أعينًا لوّامة، افترشت صدره وأناخت عليه برأسها فتلقّفها على مَضض لاهثًا، ثمّ نظرتْ إليه نظرةً سرمدية، تحمل كلّ رسائل الدهر، فأشاح بعيدًا نحو القمر فوجدَه قد اختفى، وبدَا الكون مظلمًا من جديد، وخشعتِ الأصوات إلّا نهنهة فُتنة، التي اعتراها الخوفُ فجأة، فبكت، فلانَ لها قلبُ أبيها الجامد، ولما أنْ حاول تسليتها ليذهب عنها الحَزن؛ لم يجد حيلةً سوى الأناشيد!

ثمّ آهٍ يا شيخ غسان.

****

- ٣ -

وفي الميدان الوسيع..

انطلقتِ الخيول على الجانبين تصهلُ منذرة، شيخ غسان على جواده الأدهمي، وعن يمينه بكريّه رحمن الصارخ، وعن شماله أحمد وِلد الخال يونس؛ يكزّ على أسنانه من الغيظ ساعيًا لنزْع الاعتراف بملكِه من جوف الجاحدين شاعرًا في بواطنه بالأسفِ الشّديد على ما ورّط فيه القومَ الراكضين من ورائه في حربٍ لا ناقة لهم فيها إلّا الحميّة!

وكذا انطلق محاربو الدّواسر يقودُهم سالم الدوسري وأخوه طلال ووحيدُه وائل، ومن خلفهم أتى المحاربون رِجالًا وركبانًا، زرافاتٍ ووِحْدانا.. وأمّا رشاد وإخوانه ولاد المرحوم حمّاد فأغصب عليهم سالم قولَه، وأمرَهم بالجهاد تحتَ قدمي أمّهم أمّ البنين ألّا يموت أحدُهم في المعركة فيطير لبّها، ويذوب عقلها مِن تتالي المصائب، وكان اللهُ بالمؤمنين رحيمًا.

وكانت حربًا ضروسًا، ويومًا أغبرًا، وقفت فيه القبائلُ شاهدة، آل عريمي والجباليين وآل بوسعيد، بعدما آيسوا من الحلّ السّلمي والنقاش، وبعدما آلت كلّ المجالس والأحاديث للعناد والجدل العقيم، وبعدَ اعتداء المسجد، وبعدَ العدوان الأثيم على البستان فيما بعد، إذ كان ذاك الآخر يومًا أكحلَا، يروي عنه مَن روى أنّ الفتى الطائش رشاد اقتحم البستانَ عنوة ومعه عصابةٌ من أقرانه وناصريه على حين غفلة من ولاد الخال يونس، ولم يكن في البستان سوى منصور الوهراني الفتى صغير اللولاد، وكان على صِغره يكبرُ رشاد بعام أو عامين، المهم، لم يكنْ منصور مُنتبهًا إذْ باغته من خلفِه رشاد بضربةِ فأسٍ غادرة وهو يصيح: مال أبوي ياولاد العاصي، مال أبوي والدواسر ناسي.. وأطاحت الضربة الغاشمة بالفتى فأردته قتيلًا، والحمية الحمية، والثأر الثأر، افتحْ كتابَ الله يا شيخ سالم ورتّل: (كُتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحر..)، فقال قتلٌ خطأ وديّة، ما يصير وما يجوز، لا ديّة ولا يحزنون، ثمّ ماذا؟ إمّا دماء المعتدي تُصبغ بها أبوابُ ديار المرحوم منصور، يا الصّباح الباكر تطيح فيكم سيوف الوهرانيّين في الميدان! قال المشايخ: لا نجادل، (ومَن قُتِل مظلومًا فقد جعلنا لوليّه سلطانًا)، والحرّ بالحرّ يا الدواسر.. قالوا لا.

واجتمعنا في الميدان من جديد، نشهد الحربَ الضّروس، طاح فيهم رحمن كأنّما قسورة، وظهر مِن بينهم فجأةً وهران بطبعهِ الثّعلبي، وراغ عليهم غسّانُ بالسّيف بطشًا عن اليمائن والشّمائل، والوهرانيّون كما تعرفُ لا قِبل لأحدٍ بهم في ميدان حرب.. ثمّ إن الميدان انحسر بنا في مشاهدَ عدّة، إذْ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجر، وتلاقى نصلُ السّيفين والأعينُ مِن تحتهما جاحظةٌ تلفظ بالشّرر، غسان وسالم، والزّمان؛ شاهدٌ ودليل، فانظرْ معي واعتبر.

- يا باغي الحرب، يا داعي الخراب.

- صه، بخسَك الله، ويبخس أبوك، ما علّمك كيف الحديث مع الأكابر والشيوخ!

قالها غسّان بلهجةِ المعاتب، وتبِعها بصفعةٍ على الوجه، كانت بين الحاضرين وصمة عارٍ ذات خمْسة أصابع، طُمس بها وجهُ كبير الدواسر، فكأنّما ماردٌ وانتفض، لَيت وكيت، انتفخت أوداجُه ونزع قلنسوته ولثامَه وراغ بأقدامِه التّراب فزاغ وهلةً عن أعين غسان، ثمّ ظهر مباغِتًا يضربُ بالسّيف على الجسدِ العتيق، لكنّ القوّةَ وحدَها لا تكفي، السرعة كذا والذهن وقّاد، وخبرةُ عام في الميدان ليستْ كأعوام، كان غسان أسرعَ من سالم وصدّ السيفَ

بدرعه، ولحِقه بالسّيف ضربةً أذهبتْ بذراع سالم الدوسري، فصرخ، وحملَ السّيف بيُسراه معاندًا ومكابرًا، فهوَى غسان بسيفِه على قدميه فقطعَ إحداهما وأصابَ الأخرى، فسقط، وصرخ، وكاد يبكي لوْلا المهابةُ ولواء القوم، ثمّ إنّ غسان كان بهِ رحيمًا، وكان عليه قديرًا، إذ ضرب يسراه التي تحملُ السّيف بقدمه فطارَ السّيف بعيدًا واختفى، وتوقّف الزمان في تلك اللحظة الحاسمة، وتوقّف القتال كذا والمحاربون، وشخصتِ الأبصارُ نحو المشهد المهيب، مشهدٌ دبّ فيه غسان نصلَ سيفِه في ترقوةِ صاحبه فاخترقها، وزمجرَ الدّوسري وغرغرَ دمًا، ورفع سبّابته موحدًا ثمّ سقط، وسقطتْ من خلفه رايةُ الدواسر، وانحسروا مولّين الأدبار وهُم لا يُنصَرون.

وإنْ لم يكن مجلسُ المشايخ حاسمًا لِفضّ خلافٍ فإنّ السيف له أحسم، ولِعِوَجِهِ أقوم، والشرعيّةُ تشير نحو السّيف المنتصر، وجحافلُ قبائل أرض العرب تدعمُه من بين يديه ومن خلفِه، وعلى هذا العُرف سار الشيخ غسّان منتشيًا يقودُ محاربيه الشجعان تجاه نواحي الدّواسر بأرض العرب، إذْ دخلها مرفوعَ الرّأس منتصرًا، ورغمَ انتصاره لم يكنْ ليبتسم ولا لتخرجَ منه فعلةٌ تثير أضغانَ الدواسر، فدخلها مرفوعَ الرأس مستويَ النّظر حاسمًا عازمًا على دارٍ بعينها وهدفٍ منشود، ومِن خلفه ساريةٌ من محاربيه يحملونَ على أعناقهم مَن سقطَ من إخوانِهم الدواسر، وعلى رأسهم جثّةُ كبيرهم سالم، ومِن اليمين والشّمال كانت أعين قبائل أرض العرب حاضرةً تزفّ الحاضرين بشرعيّة النصر وحلّة الدّماء، وبعدما عادَ كلّ جسدٍ سقط إلى آل بيته وذويه، انطلق شيخُ غسان يحاوطه مشايخُ العرب الكرام- وعلى رأسهم طلال الدوسري خليفة أخيه سالم- مُتّجهين نحو ديار حمّاد الدوسري.

وعندَ الدّيار كانِ نفرٌ من حرسِ الدّواسر قدْ قيّدوا الفتى رشاد بكري المرحوم حمّاد قيدًا وهميًّا، وتحلّقوا الدارَ ليمنعونَه من الهرب إذا كانت الغلبةُ للوهرانيين، أمَا وقد كانَ فقد قضى العرفُ بتسليمِ رقبة رشاد إلى الشّيخ غسان الوهراني يعملُ فيه بالقصاص، ويُريق دماءَه على عتبة ديار ولاد الخال يونس في نواحي الوهرانيين.

وفي طريق العودة، اختلى الشيخُ غسّان بنفسه، وانتحى جانبًا عن القوم معتذرًا من مشايخ أرضِ العرب الكرام، واتّجه بعيدًا ناحيةَ المقام المنسي، ذي القبّة المطموسة والجدَران المشروخة، ومِن تحتهم يرقد سيدُ الأوليا في سباتٍ عميق، يتحاكى الناسُ بكراماته ومعجزاته وسيرته البديعة، ويبجّلون وصيته التي شدّدت وحذّرت من أن يُتّخذ قبرُه مسجدًا، ولولا تبرّؤه من القوم إن هُم خالفوا وصيته؛ لخالفوها!

وعندَ القبر الشريف أسندَ شيخ غسان رأسَه المثقل بكلّ ما في الدنيا من هموم على خشب المقام العتيق، وتساءل في حوارٍ سريالي معَ سيد الأوليا أمُقِرٌّ هو ومبارِكٌ للنصر العزيز؟ وأتاه في غيهبِ الغفلة طيفُ مولانا سيد

الأوليا بمسبحةٍ مُضيئة عدد ألفِ حبّة، وعمامة كأنما البدر استرقَ منها ضوءه، وبسمة كأنها وجهُ النبي محمدٍ، فاستفاق غسّان ولحيته مخضّبة بالدموع، وحمدَ الله وأثنى عليه وصلّى كثيرًا على خير خلقه، ثمّ تمتمَ بالفاتحة وقبّل خشب المقام شوقًا لصاحبه، وكانت الشمس إذّاك على وشك المغيب.

وفي ديار الشيخ غسان إذّاك كانت الأفراحُ والطّبول والمزامير، وكانت البهجة تعمّ أرجاء الديار الواسعة، عدَا غرفة لم تطلُها، ولم تدقّ بابها، وغفلت عنها وعنْ صاحبتها، فأتاها الحزن مُتسلّلًا من نافذة الغفلة ومتسلّحًا بالأمان؛ إذْ كانت مُهرة- وهي بكرية الشيخ غسان- قد أتاها النبأ اليقينُ بالترمّل!

أمّا في نواحي الوهرانيّين في أرض العرب كانت الأفراحُ والأهازيج، وأقيم مقامٌ كبير أشغله المغنّون بِضعًا من اليوم حتّى يحين أوانُ شغله بما يليق، وكان المغنّي الرقيق عبد الله فتحي هو عينَ الناس على المسرح، وعبد الله هو أشهرُ مغنّيي العواطف والأحاسيس في أرض العرب، ويُطلَب بالاسم في الأعراس ومحافلِ النّساء، وعليه تهافتتِ النّسوة والشباب وبعضٌ من رجال القوم، واصطفّت من خلف فتحي فرقتُه من العازفين والمردّدين، واتّكأ هو على مسنده الوثير وغنّى بأعذب صوتٍ..

الناس قد نامت وانا ما غفت عيني ..

باتخيلك صورة قِبالي واحاكيها !

واحتفى الناسُ بوجوده وطربوا، وانقضتْ بأغنياته الساعاتُ الطّوال، حتى أتى من قام المقام بوقْع أقدامهم، وانتحى سَفَلةُ القوم في مجالسهم، وتُهُيّأت الجلسةُ لوجودهم، فقام المنادي وأذّن في الناس أنّ كِبار أرض العرب الكرام قدْ حضروا، وأنّ الوقت وقت عدلٍ وشهادة، واتخذ مشايخُنا من المقام مجلسًا وقورًا، وسادَ الصّمت أرجاءَ المكانِ الوسيع، وهبّت ريحٌ منعشة طفأتِ في الصدور قيظَ المعركة ولهيبَ الصّيف، وتوسّط الشيخ غسان مشايخنا، وعن اليمين والشّمال كانت الضّيافة تحضُرُ تِباعًا للشّيوخ والحضور كلٌّ على قدمِ المساواة، حتى إذا طعِم القومُ وحمدوا الله وشكروا نعمتَه؛ أشار الشيخ غسان بإيماءة حانَ بها موعدُ الحدث الأهمّ على الإطلاق، واشرأبّت من جرّائه الأعناق، فتقدّم نفرٌ من الوهرانيّين يجرّون الفتى الطائش والأغلالُ في عنقه وفي يديه وقدميه مُسلسَلًا يجرّ ذيولَ الخيبة والندم، يبكي ولا يستحي من دموعه بين الكِبار والشهود، حتى إنّ الشيخ طلال الدوسري- وكان جالسًا يلامس فخذُه فخذَ الشيخ غسان- قد صرخَ به ناهرًا له ناكرًا عليه جُبنه وسفاهتَه.

وبينما القومُ كذلك إذ حضرَ ولاد الخال يونس الوهراني، وعلى رأسهم كبيرُهم أحمد، الذي استوقفَه الشّيخ غسّان، وسأله مُخيّرًا إيّاه على رؤوس الأشهاد فقال:

- يا وِلد الخال يونس، يا وِليّ الدم.. اليومُ يومكم، والعيدُ عيدكم، وِالقصاص

في اَلمرحوم منصور حقٌّ وعدل، ولكَ مُطلق الاختيار، إمّا بيديك أو بيَدَيْ وكيلك.

فابتسمَ الفتى أحمد بسمة الحزنان، وقال مُكبّرًا بكبير قومه:

- بلْ بيدِ وكيلي وسيدي غسان.

وقتَها ربّت إخوته على كتفيه برفقٍ مؤيّدين، وهلّل الحضور، وصفّقوا مشجّعين، وانتصب عودُ الشيخ غسّان، وفرّ كأنما لدغَه عقرب، ولم يدّخر وقتًا ولم يمهل، ورغمَ أنّ خطواته من مجلسه إلى حيث الفتى المسَلْسل في الأغلال راقدًا ينتظرُ؛ كانت خطواتٍ بطيئة في أعين الفتى، إلّا أنها مرّت مرّ السّحاب في أعين الجميع، وتعمّد غسان قبلَ قضاء الأمر أنْ ينظر في أعين الشيخ طلال لوهْلةٍ لم يكدْ يلحظها أحد، لم تكنْ لتشفٍّ أو لإثارة سوءٍ معاذَ الله، وإنما وكأنما يستأذنُه في أخْذ الحق، ثمّ لما رأى الأعين ثابتةً مقرّة مجيبة؛ لم يُطلِ الأمر ولم يكدْ يلحظه النّاس، فبينَ رفّة رمشٍ وأخرى كانت رقبةُ الفتى تتدحرجُ على حصى الأرض، ودماؤه تلطّخ لحيةَ الشيخ غسان ونصلَ سيْفه، وكبّر القوم واستغفروا، ونظرَ إليهم الشيخ غسان وقال بهدوءٍ لا تحيّز فيه ولا مشاعر: استغفروا لأخيكم المسلم.

ثمّ إنّ ما حدث بعدها كان محيّرًا..

فبعدَما انقضى القصاص، وذهبَ لكلّ ذي حقّ حقُّه، وبعد أنْ آن للناس أن ينفضّوا، وللمقام أنْ يُقام، حضرَ بينَ الناس أشهرُ مدّاحي أرض العرب وأقربُهم لقلوب ذويهم وعِلية قومهم، بحُلّته السّوداء البرّاقة، وعمّته الأنيقة، ورابته التي يتلو على أنغامها أناشيدَه التي يرتجلها في التوّ والحين.

ورغمَ شهرته بينَ أرض العرب كان مغمورًا، ولم يعرفْ له أصلٌ ولا ديار ولا قبيلة، ولم يكن يظهرُ بين الناس إلّا في مجالس المشايخ وأعراسِهم، وكما يغدو بغتةً يروح بغتة، حتى إن بعض القوم قالوا إنّه من الجان، أو ما شابَه ذلك من الحكايات التي يتسلّى بها النسوة على مصاطب الدّيار وفي الأسواق!

وبعدما قدّم المدّاح، ورنّت في الآذان رنّاتُ ربابته، وبرمَ شاربيه، وأغمض عينيه، وهامَ واضطرب وتبخترَ في مشيته على أرض المقام، واهتزّ كأنما حضرتْه الحضرة، أو تنزّل عليه جبريل بالوحي؛ تلَا على القوم من البيان سحرًا، ومن الأبيات شعرًا، ومن المدح والإشارات لمآثر الشيخ غسان ما فتحَ في نفسه مداخلَ لإبليس لم يكنْ له بها سبيلٌ بالنساء أو بالخمر أو بالمال، وسبحان ربّ النّاس، فلكلّ ابنِ آدم نصيبٌ وشَرَك لا يأتيه الشيطانُ منه إلّا وأسقطه، وعملت الأناشيد ما عملتْ بالشيخ غسان، ثمّ إذا هو يرى نفسَه في تصاوير القصيد وصيحات الربابة ما تمنى أنْ يكون، ولامستْ في قرارة نفسِه الأناشيد موضعًا مقدّسًا، فطربَ، وانتشى، وهام، وهاج، وسقطَ، ونجَا، ثمّ ماتَ وبُعث تارة أخرى، فإذا الدنيا قد احمرّت بعينيه واصفرّت، وتباينت ألوانُها، فإذا

هي حلوةٌ خضِرة، وطاحتْ عمامتُه حين رأى الناس يردّدون ما سمعوا، وسال لعابه حينَ حفظوه، ثمّ حينَ فرِغ المدّاح قام غسان بينَ الناس يتطوّح من سكرة الأناشيد وخدر الانْتشاء، وقال وقد جحظتْ عيناه، وتحجّرت يداه حول مقبض السيف:

- يا الوهرانيّين.. سيروا تحتَ سيفي نرتوي بدمِ الدواسر.

****

الفصلُ الثّاني

«موقعةُ المسْجد»

- ١ -

وفي الحجرةِ المتوارية من البيت العتيق، كانت مُهرةُ تبكي..

مُهرة، فما مُهرة، وما أدراك ما مُهرة! بكريّةُ شيخ غسان، هي وإنّما تناطحه الرياسة والحماقة ودَكَن العين. وكانت على رقّتها مُهابة، وكلمتُها مُجابة، وإذا انكشفتْ تفرّقت دونها قبيلة وعصابة. وكانت محمودةَ الخِصال، مجيبةَ السؤال، لكنّما كانت مهرة أيضًا صعبةَ المنال، فلا يسوسُها إلّا خبير بالمُهر فارسٌ كرّار، وكان لها الفارس مِن بين الرجال، لاح لها كأنما سنا برق، فأشارتْ إليه بـ كنْ؛ فـ كان! خيل لسائس، وفارس لمُهرة، فامتطاها مروّضًا، وأوجعها بسوطه فكانَ يُسمع صهيلها من مسافة كذا وكذا!

كان اسمه بكّار، لا يعرف إنْ كان ذا أصلٍ المُسمّى أم كناية، لكنّه كان معروفًا بين القبائل بالبَكارة، والاندفاع في الميدان، لا يخشى، ولا يُبالي، بل يلقي بروحِه في التّهلكة، ويغوص بين صهيلِ الخيول ونعيق النّوق وتلاطم السّيوف حاصدًا للأرواح مجتثًّا راية الأعداء، شاهرًا في الفضا سيفَه متسائلًا: مَن للفتى؟

ولم يُعرف مِن أيّ القبائل كان، قيل بوسعيدي لأنّه كان مشتغلًا بالتجارة وذا مال، وقيل جبّالي لأنّه كان ذا آدمية في لوْن جلده، وعَوجةٍ في لسانه، لكنّما الأكيد والمؤكد أنه ما كان وهرانيًّا قطّ! جمعته التّجارةُ بالشيخ غسّان فتعارفا فترةً، وتنقّلا من منتهى نواحي أرض العرب قاطعين الصّحاري الكالحة نحوَ أسواق مُلكستان العظيمة ببضاعتِها العجيبة وتجارتها الرابحة، وتشاركا، واشتريَا وباعَا وربِحا ربحًا عظيمًا، واستبشر به غسّان خيرًا، وأنزله في نفسه منزلة خيّرة، وأهداه قلادةً كانت العرّافة تقول إنّها من الشيطان حرزًا ومأمنًا، فعظُمَ ذلك في عين بكّار ووُقِّر، وكان من جميلِ خِصاله أنّه حفّاظٌ للجميل، فحلفَ بالله غير حانثٍ ليبذلنّ للشيخ ما استطاع، حتى إنْ أهدر في سبيل اليَمين دمُه وماله، وحين حانتْ ساعة الوفاء باليَمين وأذّنت الأقدار ودُقت نواقيسُ الأخطار، وأغارتْ عليهم عصابة من قطّاع الطرق في رحلة العودة إلى أرض العرب؛ استأسدَ بكّار، وأظهرَ معاني اسمِه حرفًا حرفًا، فلم يدعْ دون غسان سيفَ رجلٍ إلّا صدّه، ولا نَبلٌ إلّا ردّه، وغرسَ نصلَه في الصّدور إلّا مَن ولّى منهم الأدبار فارًّا.

ثمّ إنّ غسّان استلقى على قفاه من الضّحك وأقسم ليزوجنّه ابنته ولا يصدقْه شيئًا، وما كان ذلك الوعدُ هيّنًا، إذْ عُدّ ذلك في أرض العرب منْقصةً وعيبًا، وبكرية تزوّج بلا صداق فما سرُّها؟ غير أنّ غسّان لم يلق لكلّ ذلك بالًا، ولم

يكترثْ حتى لمجهوليّة نسب الفتى وهو الذي يعدّ عيبًا آخَرَ، وصدّق الهاتف الذي سرى في أعماقِه بالراحة والاطمئنان للفتى بكّار، وتوسّم في بشاشتِه خيرًا، وعدّ له المحاسن والمشاهد، وأنزله في قلبه منزلةَ ولديه رحمن ووهران.

ثمّ حينَ عادتِ القوافل لأرض العرب، وحلّ بكّار ضيفًا على الشيخ غسان في نواحي الوهرانيّين، وأدناه منه مجلسًا، وأشركَه مجالس المشايخ معَ ولديه؛ عرفه القومُ وأكرموه، وأشادَ مَن جمعته به المشاهد بالخُلق والشّهامة ونفاسة المعدن، ثمّ إنـ...

ما.. ماذا؟

نعم.. نعم، فهمتُ ما ترمي إليه، لا تفاصحَ ولا يحزنون؛ ولكن مَن عاشرَ القوم كما يُقال فما بالُك بأرض العرب!

والقصدُ يا سيدي القارئ أنّه لا ضيرَ من أنْ أريك جانبًا مما رأيتُه أنا أثناء رحلتي في دهاليز أرضِ العـ...

ماذا؟ حتى «لا ضير»!.. لا حولَ ولا قوّة إلّا بالله!

حسنًا، فلنتباسطْ في الكلام ولا نتكلّف، علّك تنتبهُ للجوهر، وتغضّ الطرف عن زلّاتي!

والآن.. أينَ كنّا؟

نعم، نعم.. بكّار ومُهرة.

ثمّ إنّ بكّارٍ يا سيدي حين حلّ ضيفًا على شيخ غسان، وطافَ به نواحي أرض العرب، بدءًا بناحية الوهرانيّين ثمّ الجبّاليين فآلِ عريمي والدواسر، واختتم بالبوسعيديّين، وعرّفه وعرّف به النّاس، وأشاع بينهم أنّه قد خطبَه ابنتَه مُهرة نظيرَ عُمره؛ أكبروه وأنزلوه بينهم مُنزلًا يرضاه الشّيخ غسان، ثمّ إنّه أسكنه بدارِ ضيافته لأيامٍ تسبقُ العُرس، ولم يكن قد رأى مُهرة بعدُ ولا رأتْه، إذْ كانت عنيدةً كأبيها، تناطَحُه الرأي، وتلاسنه بألسنٍ حِداد، وامتنعت عن التجلي، واعتزلتْ في غرفتها المنْزوية في الطّابق العلوي من الدّار التي تُعدّ أجملَ دار في نواحي الوهرانيين، ثمّ إنّ موقفًا طريفًا حدثَ على حين غفلةٍ من مُهرة، إذْ خرجت من عُزلتها ظنًّا منها أنّ الديار تخْلو من الغرباء، لا سيّما بكار وأبيها الذي أعدّته من الغرباء في تلك الفترة، وكانت في أوْج زينتِها، وهي التي بطبيعتِها حُلوةٌ خضِرة كأنّما دنيا، فكانت تهوَى التزينَ والتجمّل، فخرجت في قميصٍ حريريّ يكشف عن ذراعيها البضّين، وجزءٍ من عنقِها المرمري، وشعرها الذي كان بلوْن الكحْل يخفي ظهرَها بأكمله ويلامس مؤخّرةً ناهضة لا تستتر، فلمّا رآها بكّار وكان إذّاك مع أبيها وأخويْها في الرّدهة الرئيسية بالطّابق الأرضي، وكانت هي في الممشى الذي يصل بين الغرفِ العلويّة

والسّلم الواصل بين الطّابقين تمشي بتؤدَة، فلمّا رآها أكبرها، وسبّح باسم الله الجميل، وسالَ لعابُه من هوْل ما رأى، وكان قد رسمَ في مخيّلته وجهًا قبيحًا لفتاةٍ متأخرة العقل يسعَى أبوها للتّخلص من ثقل عبئها! لكنّها سحرتْه، وفتّتت ما بناه في ذهنه، ثمّ لما سمِعت نحنحةَ أبيها وأخويْها التفتت إليهم بذعْرٍ، وتصادفتْ عيناهما فأوقعته، وأدخلته الجنة وأخرجته، فوقفَ على بابها يدقّ تارةً ويركل تارةً، وبين النّارة والنّارة ينوحُ نواحَ الثكالى والسكارى، أفمَن ذاق كمَن لم يذق؟! فضحكتْ من حالهِ مُهرة، وتمثّلت ببيتِ شعْرٍ قديم يصف حالها بعدَما مصمصتْ شفاهها استنكارًا وتهكّمًا:

وما هند إلّا مهرة عربية

سليلة أفراس تحللها بغل

فإنْ ولدت فحلًا فلله درّهُا

وإنْ ولدت بغلًا فجاء به البغل![1]

فضحكَ مَن بالدار مِن الخدم والجواري، وقهقَه رحمن، وتماسكَ وهران في اللحظات الأخيرة بعدَما لاحظ جحوظ أعين الشّيخ غسان، ووجه الرّجل الذي حُبستْ فيه الدّماء من الحرج!

في تلك الليلة، وبعدَ تلك الواقعةِ الطريفة، دلفَ بكّار نحو بيت الضيافة الذي كان على مقربةٍ مِن الدّيار يفصلُهما عن النواحي حديقةٌ وسور، ولم يستطعِ النّوم، تعزف الأبيات التي تلتها مهرةُ في رأسه لحنًا يُخاوي ملوكَ الجان وسفلةَ المرَدَة، يرقصونَ على حرارة دمه المسفوح هدرًا وفداءً، وتعجّب من حاله، وتعجّب حالُه منه، إنّه لا يملك لنفسه تفسيرًا، ولا لألغازه ترجمانًا، واستدارَ فإذا نافذتها مُضيئة يقظة، وكما هو المعتادُ في حكايات الغرام، والتي على تشابه أحداثِها وأقوالها تمتازُ حتمًا عمّا سواها؛ وقف بكّار تحتَ نافذتها وألقى بتمرة ساقطة من نخلة في واجهةِ الدّار، أتخرجُ لك يا بكار؟ لا أظنّ، ما الحل؟ نعم، شمّر بكارُ وسمّي باسم الذي هو في السّماء إلهٌ وفي الأرض إله، وقال: للتّمر جانٍ يَجْنيه، وتسلّق بكّار النخلة ونشوةٌ تسري بأوردتِه تذيقه مذاقَ الخمر الذي حرّمه على نفسِه، وحين قابل نافذتَها صفّق، وهمس وألقى بالتّمور حتّى يئست النخلة، ثمّ ماذا؟ ثمّ أخيرًا دقّتِ السّاعة، وخرجتْ أولى علاماتها الكبرى، ظلالٌ تقترب من ستار النافذة..

خرجتْ له مُهرة، وفي يديْها التّمرةُ الأولى، فاغتاظَ منها وكزّ ضرسيْه وهو يضحك من أطوارها العجيبة، وتساءلت دونَ أن تنطق، بأعينٍ لمّاحة، وحاجبٍ عاهرٍ لا يختشي، فقال بلسانٍ لم يعهدْ نبرته من قبل:

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليسَ لي

متأخرٌ عنه ولا متقدَّمُ

وأهنتِني، فأهنتُ نفسيَ جاهدًا

ما مَن يهون عليكِ ممن يكرم!

أشبهتِ أعدائي، فصرتُ أحبّهم

إذْ كان حظّي منكِ حظيَّ منهمُ

أجدُ الملامة في هواكِ لذاذةً

حبًّا لذكركِ فَليَلُمني اللُّوَّمُ[2]

وكأنّما لامسَ كلامُه فيها هوًى؛ فهوتْ!

وكانت على جموح مزاجِها، وعنادها؛ زوجةً تعرف ما للزّوج من حقّ ودرجة، فكانت حريصة على إبقاءِ زوجها تحتَ ظلالها، وكانت كما علّمتها أمّها تملأ معدتَه دومًا وتفرغ خصيتيْه، ومالَ إليها بكّار عمّا توقّع، حتى وقعَ فيها، ولم يشأ النهوضَ ولا الحراك، أسَرَته، وقيّدته بها، وأنهتْ بنفسها تيهًا عاشَ به بكّار عمرًا طويلًا قبلَها، حتّى قال لها ذاتَ ليلة ورأسُه مستند على نهْدٍ رطبٍ، وترقوة: التّوبة تمحو ما قبلها؟ كذلك أنتِ!

وكانت مُهرة خليلته قبلَ أن تكون زوجتَه، وعاءُ سرِّه الذي لا ينكشف، ومحطّة استراحته في مسيرةِ الأعوام المتعِبة، ومعَ الأيام والأيام سقط بكّار في قلبها ولم تشأ له الخروج.

والآن، في غرفتهما المخصّصة في الطابق العلوي من بيت الشيخ غسان، البيت الأكبر في نواحي الوهرانيّين وأرض العرب.. تجلس مُهرة ذابلة، ترفلُ في ثوب الحداد، تعتصر قلبًا نُزع منه بكّار نزعًا، خطفَه الموت باكرًا، خطفته الحربُ الظّلماء، حربٌ لا ناقة لهما بها ولا جمل، ثمّ ماذا؟ ثمّ إنّ القوم هنالك يحتفون، يدقّون الطبل ويرقصون، يذبحونَ الأنعام ويأكلون، ومُهرة؟ مُهرةٌ وحيدة في جوفِ الظّلام.. يأكلها الحزن.

* * *

- بسْم ربّ العالمين الحكمِ العدْل (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما..)

قالها شيخُ مأمون الجبّالي، وصدّق من خلفِه مشايخُنا الكِرام الجالسون في بهو ديار شيخ سلمان البوسعيدي في جلسةٍ عُقِدت بعدَ حفل القصاص، قال شيخ طلال الدوسري:

- زيّن الله وجهَك بنورِ القرآن يا شيخ مأمون، لكنِ اسْمح لي الاستشهادُ في غير موضعه!

عُقدتْ حواجب، وتطلّعت أنظار، واستأنفَ الرجل ذو السّمْت الوقور عن أخيه المرحوم سالم حديثه:

- ترى.. لا رفعنا سيفًا، ولا همسْنا بذكر قِتال، كان ما كانَ والقصاص وتمّ، مات

رشاد واللهُ قال حرٌّ بـ حر.

ثمّ التفتَ إلى شيخ غسان، وقال بحرقة وحنقٍ، متحاشيًا ذكر اسمه:

- يا شيخ الوهرانيّين، عطيتُك كلمة، ووفّيتك بعد، علاش قلبك يبغي دم؟!

ثمّ عاد للشيخ مأمون وقال مصحّحًا:

- قل (فإنْ بغت إحداهما على الأخرى..) يا شيخ مأمون، ذا عين الاستشهاد.

قال شيخ سلمان البوسعيدي:

- يا الله يا رحيم! بالله يا مشايخ ما جينا باغيين شرّ.

كان شيخ غسان بعيدًا كلّ البُعد عنهم، تُبثّ الأناشيد في رأسه وتدوّي فلا يسمع مع سحرها صوتًا، ولا يزاحم أنغامها نَفَس.

ما الأناشيد، وما الذي عملتْه في نفْس الشيخ الجليل؟ إنّها الخلود والبقاء، إنها المجد والارتقاء، إنّها سرّ الحياةِ وينبوع الخلود الذي ضلّ عنه ذو القرنين، واحتارَ في طريقه الرِوّاد، الأنشودة تُخلّد ذكرَك، تتغنّى بنصرك ومجْدك، تذكرك دومًا وتذكّر بكَ الناس، لم يعهد شيخ غسان نشوة كتلك التي سرَتْ في جسدِه، وسحرته حينَ سمع الأناشيد أوّلَ ما سمع، وحين نظر فوجد النّساءَ يصفّقن، والرجال يهلّلن، والصبيةُ يردّدن في حماس، وأعين تتأجّج بالفخر، يرددن الأنشودةَ التي تحكي نصرَه السّاحق الماحق لسالم الدوسري وولاد شيخ حمّاد، الأنشودة التي ستُبقي تلك الواقعةَ خالدةً مخلّدة، وسيبقى معها ذكرُه أبدَ الآبدين، الأنشودة التي سرى مع أنغامِها صوتٌ يوشوشُ له في خدرٍ لذيذ، وفي غنجٍ يُضاهي غنج العواهر والمومسات، يقول له بلسانٍ ناصح وأمين.. أكمل، واصنَعْ لنفسك من الأناشيد ما لا تمتْ به أبدًا، عشْ ما شئت يا شيخَ غسان، ولتبقى في الأرض سيرتُك، يتغنّى بها الصبيان وتمصمصُ النسوة من أساطيرك الشّفاه، لا المال يبقى ولا في اللّولاد خير، لا رحمن ولا وهران، وأينَ منك مُهرة؟ ولا تضع فُتنة في عِداد اللولاد، جميعُهم لا خير فيهم، جميعُهم لا خير لكَ فيهم، والمال إلى المآل، كما الجسد.

وحدَها الأنشودة تبقى، الأنشودةُ تعني الخلود، الأنشودة تعني البقاء، الأنشودة تبقيك حيًّا.. لا يموت.

وظلّ يهمس في نفسه حتى سُمِع لهمسهِ أحرفٌ فُسِّرت، عنْ أيّ أناشيد يا شيخ غسان تهذي؟

- عنْ أيّ أناشيد يا شيخ غسان تهذي؟!

- ويش؟!

وكأنّما استفاق ولم يستَفِق، سأله شيخُ مأمون مرّة أخرى والأنظارُ تلفحه

بصداها الحراق:

- شيخ غسان، هلَا ومرحبَا.. معنا في المجلس واللّا وين؟

ثمّ قال طلال نافضًا يدَه كأنما يرجو خلاصًا:

- نتسولف عنْ كتاب الله ويقول أناشيد! يا رجّال وين حقّ الشيبة.

جحظتْ أعينُ شيخ غسان واكفهَرّ وجهُه من نبرة الكلام، ضربَ بعصاه بلاط المجلس فانتفضَ مَن غفا، وانكتمَ مَن همّ بالكلام، وحام فوقَ رؤوسهم سربٌ من الغربان ينتظر أيّهم يسقطُ أوّلًا.

ثمّ قال بصوتٍ جهور غليظ:

- بخّسك الله يا الدحيس، شين إنت وبعد الأخو شين، صن لسانك وخلك عليم بمقامك قبل الكلام عن شيبات وما شيبات.

ولم ينبسْ طلال ولا حدا من مشايخنا، وكان لشيخ غسان في غضبتِه حق، ثمّ إنه استأنف على نفْس الوتيرة التي أضفتْ لكلامِه شرعيةً ليست في محلّها، ولكنّ وقارَ المشهد فرض نفسه فقال ولم يردّه أحد:

- يرحم اللهُ أخاك سالم ويغفر له، سالتْ على يديه دماء آل وهران والدّواسر بعد.. مين بغى حرب أوّل مرّة؟ غسّان اللي قال القصاص وحُكم كتاب الله؟ واللّا سالم اللي اختبوا السفهاء تحت إزاره! علاش مات مَن مات؟ ويش تفرق دماهم عن دماء منصور ولد الخال يونس؟ ما بغيناها دم ولكن بغينا عدل وحقّ. اعتديتم والرب قال (فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم..) والقصاص فرض.. حرّ بحرّ.. عبدٌ بعبد.. أنثى بأنثى.. ما شريعتي حتّى تقولون هوى غسان.. ذا كتابُ ربّ العالمين.. ولا عدوان إلّا على الظالمين.

قالها ونهضَ لم ينتظر أن يعقّب مَن يعقب..

دلفَ خارجًا يجرّ إزاره، ويتّكئ على عرجونه، تكلّله هيبة، ويحلّ من بعده صمتٌ مدقع، تنظر الأعينُ إلى بعضها تتقلّب وتدور في المحاجر فلا تجدُ ما يملؤها، نهضَ الشيخ غسان ورحل وانفضّ من بعده الجمعُ الذي أحسّ بأنْ لا مفرّ من الحرب.. ولا رادّ لقضاء الله!

*****

- ٢ -

قيلَ إنّ شيخ غسان لم يتزوّج إلّا مرّة واحدة..

ولكنّني أطعنُ على هذا وأحتج، الدّلائلُ والبراهين تقول إنّ رحمن بكري الشيخ غسان هو أخ غيرُ شقيق لوهران وإخوته البنات، فطس أنفه وآدميته لا تمتدّان إلى غسان والمرحومة، واللقب الذي يرميه به غسانُ في ساعات العسرة

وأوقاتِ الشّقاق وترعرع بذرة القسوة في أعماقه- ابن السّوداء- يقرّ ويفصحُ عن حقيقة غابتْ عن البعض، وتجاهلها البعض، وظلّت طيَّ الكتمان دونما سبب.

لعلّك تسأل مِن أين أتى شيخ غسان بماله؟ لا.. إيّاك أن تفكّر فيما تفكّر فيه، هو ليس من هذا الصنف من الرجال.

إنّه غنيّ بالوراثة، كابرًا عن كابر، وآل وهران وإنْ لم تكن الأغنى- نسبة إلى البوسعيديين على الأقل- قبيلة اشتهرتْ بين القبائل بالتّجارة الرابحة ورحلات الشتاء والصيف والشام والهند والحبشة.. ومُلكستان.

تقولُ الأقاويل- والعهدةُ على أصحابها- إنّ شيخ غسان قبلَ أن تغدو له لحية، وقبلَ أن يضافَ إليه لقبُ «شيخ» كان مشهورًا بين الناس بأمريْن؛ التّجارة والدين، كان على صغرِ سنّه إمامَ الناس في مُصلّاهم، وجامعَ زكاة أموالهم، وحافرَ لحودهم، ومكفّنَ موتاهم، وكان ترتيله بركة تحلّ على المسامع، ودعاؤه صلاةً في الملأ الأعلى، يرفع فلا يرد، وكان بين إخوانه الذين لا يُعدّون؛ قريبًا لقلب أبيه. وكانت شهورُ رحلات التجارة كأنما شمسٌ تغرب في قلب أبيه، فلا تشرقُ إلّا بانقضاء الرّحلة، وباستهلال وجْه غسان منيرًا لعتمةِ داره ولقلب أبيه، غير أنه عاد ذاتَ يوم أغبر، بعدَ رحلة امتدّت لِحَولٍ كاملٍ جابَ فيها البلاد، وباع للعباد، وعاد محمَّلًا بالزّاد والأموال، وخرقة يتوارى فيها رضيع آدميُّ اللون وبأنفه فطس!

نظرَ إليه أبوه، وسأل بجفاء وجبينٍ معقود:

- وين أمّه؟

فقال غسّان بلسان يقطرُ ندمًا:

- واراها التراب.

تقولُ الأقاويل- والعهدةُ كما علِمت على أصحابها - إنّ غسان تاه في تلك الرحلة عن مَساره، وابتلعته الصحراء، ولعِبتْ برأسه الخيالاتُ ونشوة السّراب، سُكِر بغير خمر، ودُلّ بدون دليل، وأوقفتْه الأقدارُ المخزية على عتبةِ بيتٍ معُلّق أعلاه رايةٌ حمراء، سقط، أغشي عليه؟ كلّا، كان يرى، غيرَ أنّ ما رآه لا يُرى، تداخلتْ في أعينه المشاهد والنهود والألوان، وتصاخبَ في أذنيه ضجيجُ الطبول والغنْج والضحكات، تمازجتِ الوجوه، وتلاعب أيدٍ بما لا يحقّ لها، وصعدتْ به نحوَ جبل المنتهى، وألقتْه من علٍ صريعًا يبكي ماضيًا ناصعًا لوّثته لحظة الإعياء.

استفاق بعدَ مدّة، معصوبَ الجبين متعرّقًا، ومِن حوله حلقةٌ من الرّواني، ينظرْنَ إليه نظرَ المغشيّ عليه من الموت، أهذا الذي فعلَ ما فعل؟ وبمَن فعل؟ بالسّوداء! الجارية الذّليلة، الموكلة بجلبِ الماء وحلبِ الشّاء ونتفِ شَعر

العانِ!

كانت بِكرًا- قالوا-، وكذا غسّانُ كان.. وليتَ الذي كان ما كان.

خرجَ غسّان ينشدُ رحلته الضّالة، واقتفت البكّاءة السوداء أثره، تخطو على مكانٍ خطّ عليه، ولا تكفّ عن البكاء، تقيء وتغوط وتسعل ويغشَى عليها، ويدْنو منها الموت كلّ حين، وغسّان؟ غسان يطبب ما استطاع أن يطبب.

انتفختْ بطنُها وتكوّرت، ومعَ الأيام والأشهر، وكلّما اقترب غسان من ميقاتٍ يلقي به رحلته الضّالة؛ اقتربت السّوداءُ من الموت خطوة بعدَ خطوة.

حتّى إذا أدركَه الفرج، أتاها اليقين.. وسقطَ من بين فخذيْها رضيع، وسقطت على ظهرها تسألُ الرحيل.

كفّنها غسان وصلّى عليها، وبكاها بحرقةٍ وأسِفَ لها، ونظرَ في أعين الرضيع الساكن فوجد إثمَه سوطًا يلذعُه كلّما نظر، سمّاه رحمن، لعلّ الله يرحم أمّه ويرحمنا من بعدها.. وفاتت أيام ودهورٌ وسنون، وأعينُ رحمن لا تتكلّم إلّا بإثمِ غسان، ولا تذكّره إلّا بالليلة الغبراء، ولا تتركه إلّا ونغزٌ في الأعماق يؤرّقه، ويؤلّب عليه المواجعَ والآلام، فيذكر اسمَ الله الرحمن، ويقوم فيصلّي ما شاءَ له اللهُ أن يصلي، ويبكي حتّى تخضبّ لحيتُه من البكاء، ويهرول حتّى يصادف مقام شيخ الأوليا، يرْجوه الشّفاعة، ويفضفض بينَ منبره ومقامه بما يختلج في صدره، ويعمل به عمل الجان، ولا يهدأ إلّا بالنعاس الذي يغشاه فجأة، وبصفحةِ وجْه سيد الأوليا الذي يأتيه ببسمة كأنّما وجهُ النبي محمدٍ، وبمسبحتِه الكهرمانية عددُ الألف حبّة، فيستغفر عليها غسان وهو واضعٌ رأسَه في حجْره الشّريف، يبكي كما بكى من قبْل، حين واراها التّراب، وتمنى لو توارى هوَ الآخرُ قبل أن يلقاها، وقبلَ أن تلوّث صفحة أيامه النّاصعة بنكتةٍ سوداء، تتجلى كلما نظرَ في أعين بكره.. رحمن.

* * *

ما أبْطأ الزّمن في سعْيه للخير، وما أسرعَ خطاه نحو ميدان المعركة!

حَسن، أنت تعلمُ كيف هُم الوهرانيّون في ميادين القتال، صحيح؟

تحدّثت معك مُسبقًا عنْ رحمن الوحشي، ووهران الثّعلب، وعن أبيهم غسان المُهاب، وعلى شيمتِهم، كان آل وهران في الحروب تُخشى وتُهاب، الناسُ على دين ملوكهم، ها؟!

ولكنْ، في تلك الجولةِ من المعركة، والتي حلّت على رؤوس الدّواسر بغتة وهم قالون، لم يكنْ سلوكُ شيخ غسان كما المعهودُ والمتعارف عليه، الحربُ سِجالٌ هذا أكيد، لكن القلم لم يكتبْ لشيخ غسان إلّا الظّفر، فلِم ذلك البكور والسّبْق في دقّ الطبول، ولم تلك الوحشية في المبارزة، ولمَ تلكَ الصّيحات التي تصدرُ عنه كلّما بطش بمحاربٍ أو تمكّن منه؟!

شيخ غسان في تلك الجولة من المعركة مختلف، أقولها لكَ وأنا أعلمُ به منك، فأنتَ لم تره إلّا في جولتِه مع المرحوم سالم الدوسري، لم تره في الأيام الخوالي، حينما هجمَ عسس مُلكستان على أرض العرب بغتةً كبغتةِ غسان التي نراها على الدّواسر، ما الذي أتى بهم أولاد المخانيث؟ يقولون في همسٍ متوارٍ عن الآذان إنّ جندًا ما خرجَ عن السيطرة، تمرّد؟ هوجة؟ ثورة؟ لم تكنْ تلك المفاهيم متوارثةً في أرض العرب وبينَ القبائل، الناس على دين ملوكهم كما قلْنا، ومشايخ أرض العرب الكرام أَمَروا بالسّمع، وبالسمع أُمِروا.

وقتَها، لم يكنْ شيخ غسان شيخَ آل وهران بعْد، لكنّه كان ذا اسمٍ وصدى، مَن كان شيخهم؟ كان أبوه، وكان تاجرًا، وكان أحمقَ سريعَ الغضب وسيّئ الظن، تأخذُه الحمية فجأة، ويقودُ القطيع من خلفِه زرافاتٍ ووحْدانا، فما الذي حدث؟ المعتاد هو ما حدث، رحلة القوافلِ من مُلكستان إلى أرض العرب طويلة ومحفوفة بالمخاطر، وتساقطتِ المخاطر حولها من كلّ ناحيةٍ بسيف، نُهبت، وسُبيَ النساء ورُقّ الرجال والأطفال وبُددت العير والأموال.. فما الذي كان؟ رغِبَ شيخ آل وهران إلى الشهبندر، والشهبندرُ هو ذلك القوّاد الخنيث الدحيس، حلقةُ الاتصال بين سلطان مُلكستان وشيوخ قبائل أرض العرب الكِرام، يجمع الجزية كلّ أوانٍ ويحصدُ حقّ المملكة، ونظير أمان رحلات التجارة، فلمّا كان المشايخ الكرام لا يحنثون بعهدهم، ولما كان من أمرِ الرّحلة المنهوبة، ولما رغِب شيخ آل وهران للشهبندر الذي رفع الأمرَ إلى السّلطان المجيد، وعاد بخفيّ حُنين، أعلن شيخ آل وهران خروج الوهرانيين من سلطان الحماية المُلكستانية والاستقلال.

وكان لسانُ الحال يقول: ندفع ندفع وما نحصّل شي.. يلعن أبوهم المخانيث!

وانقضّ عليهم المخانيثُ بعدَ الهوجة بأسابيعَ معدودة، بالبارود والكرابيلة، تقابلهم سيوفٌ لا تصُدّ ولا ترُد، وسقطَ من الوهرانيّين العشرات، وتأذّى من رجالها المئات، وأرجع بعضهم القول أنّ تلك الموقعة كانت هي السببَ في انطفاءِ العين اليُسرى لشيخ غسان، الذي سبّ وهبّ في وجوهِ العسس، ورفعَ سيفَه عاليًا في المنتهى، لا يهبط إلّا بجزّ رقبةٍ أو فتق عرقٍ أو شقّ زند، يصيحُ كالمجنون كلّما سمِع صوتَ طلقات البارود واشتمّ لحمَ إخوانه الوهرانيين يُشوى من اللّهب، كان حاميًا كأنما نُكحتْ زوجتُه أمام عينيه، هائجًا كأنّما ذُبِح أولاده للتّو، وحزينًا كأنما لم يقدرْ على فعل شيء!

لكنِ اليومُ ليس كالأمس، والحالُ غير الحال.. وغسان في الحالين واحد.

باغتَ شيخ غسان ديارَ الدّواسر، وانقضّ عليهم شاهرًا سيفَه، بارزًا نابه، رافعًا مخلبه في أعين التّعساء، ومن ورائه كان مَن تبِعه مِن قومه بإحسانٍ والهجّامة والصعاليك!

الهجامةُ يا شيخ غسان؟!

سكانُ الجبال، الإنسانُ في طوْره الأوّل، قبل أنْ يعرف أنّ الكلمة حرف، وأنّ الحرف دَين وشرف.

على نوقِهم هجموا، بالسّيوف المقوّسة، والعمامات المزركشة، واللُّثُم السّوداء التي تواري نيوبًا متحفّزة، وصيحاتهم الهمجيّة المخيفة.. يتقدّمهم زعيمُهم قابوس بن قابوس؛ مطموسُ النّسب الذي هو مِن سِفلة القوم، الهجّام الأوّل، وزعيمُ شلّة المطاريد، قرصان البرّ، وعفريت النهار الذي لا ينتظرُ مصباحًا يُحَك، ولا طرقًا يُدَك، ولا يعرف إلّا ذهبًا يُصكّ!

قابوس بن قابوس مطموسُ النّسب، أبوه هو قابوس مطموسُ النّسب الذي هو من سِفلة القوم، لا يُعرَف له صُلبٌ قذفه ولا ترائب، سليلُ العار، وحاملُ إكليل الغار، تربى في خرائب القومِ، وترعرع من زبالتهم، وعرفَ الحيلة لكسب قوتِ يومه، فنشأ شحاذًا في ربوع أرض العرب، وترعرع بين نواحيها خفيفَ اليد سريعَ الجذب والخطف، ثمّ ترقّى به الحال فشَهَر نصلًا ولفّ لثامًا وتهجّم على الحوانيتِ في منابت الفجْر، وغنمَ من ذا غنيمة كثيرة، حتى غوته غانية، كشفتْ لثامه وعرفته، وأغمدتْ نصلَه وقبّلته، فطعنَها بخنجرٍ لا جرابَ له، وتركها حبلة بلا زادٍ ولا رطب، وغابَ واغترب، وعادَ بعْد حولٍ أو يزيد، فعرفتْه ولم يعرفها، وقالت هاك ابنك الصّنديد، الذي يرضعُ فلا يشبع، ويصرخُ فلا يدمع، فحمله ونزحَ به نحو الجبال، وألقاه للجان والعفاريت، وقال إنْ هلك فهو أهلُ الهلاك، وإنْ نجَا حلّ على أرض العرب الهلاك.

قابوس بن قابوس مطموسُ النّسب الذي هو مِن سفلة القوم، شيطانهم، وغريمهم الأزلي، مطرودٌ هو مِن جنة أرض العرب، نازحٌ هو دومًا نحوَ الجبال، مع الأفاعي والعقارب والثعالب والجان والعفاريت التي تمثّلت له في صورة أمّ فأرضعتْه، وسقتْه السّم لبنًا وأشربته، وأطعمته الجيفَ والرّوث والعظام النّخرة، فشبّ والأساطيرُ حوله تشبّ، قالوا ضاجعَ جنيّة فأنجبت له عشيرةً لا توقظها إلّا الليالي الحُلك، وقالوا حرّمت عليه الأُنس ومجالس الناس، وقالوا وهبته بصرًا نفّاذًا وقدرًا مِطواعًا، فلا يريدُ إلّا وخضعتْ له الأقدارُ بما أراد! لحيته التي افترشت صدره تميّزه، وحُمرةٌ دائمةٌ في حدقتيْه تُضفي عليه رعبًا يخلع الصّدور، والطيور السوداء التي ترفرف حينَ إطلالة جعلتْ منه خرافة حيّة، إبليسًا جديدًا.

لكنّ الناس في أرض العرب يتكلّمون في ما لا طائل منه، والشّواهدُ والبراهين شحيحة، ولا يصحّ أن نتسنّد على القيلِ والقال، فما عُرف عنْ قابوس غيرُ لحيته وحمرة عينيه، أنه فَرِع الطولِ كأنّما نخلة، أنيقٌ حتّى في أحلك الليالي، اشتهرَ بعمامته التي هي أنفس من هندامه، وهندامه الأعزّ عليه من سرواله، وسرواله الأحبّ إليه من نعليْه، ونعليه الأقرب إليه من آله وولده والناس أجمعين.

وشلّته التي لا تأنس ولا يُأنس بجوارها، رعاع الناس، جفاتهم، جلفة قلوبهم،

خسيسة طباعهم، يعبدونَ الدّرهم، ويلعقون بظور الدّنانير، هجّامة هم، مطاريد، قراصنة، مرتزقة، أولاد زوانٍ.. ما علينا، عاشروا الجبل وعاشرهم، فتمخّضوا حصى وحجارة وجلاميد، جيلًا بعد جيل، لا يرون شمسَ النّهار، ولا يعرفون لونَ العشب، إذا الليل أسدلَ سترَه تجلّت ظلالهم كأنّما وطاويط، لا يؤمنون برب، ولا يخافون جنيًا ولا برّيًّا ولا ذي سلطان، يلمعُ الذّهبُ في أعينهم، فتلمعُ في أعماقهم أفخاذٌ طرية، وعجيزاتٌ غنية، ونهودٌ غجرية، تتراقصُ في جُنح الليل لا تتوارى من تلصّص مُحتمل، ولغنجٍ يرنّ صداه في نواحي الجبل فيسقط وقعُه في آذانِ الناس في أرض العرَب فيصرخون بأنه جنٌّ عاشق!

لجأ شيخُ غسان إلى قابوس بن قابوس مطموسِ النّسب وجماعة المطاريد، وطلَبَ العَون والمدد، وزارَه سيدُ الأوليا في المنام كثيرًا، وفي الغفلات والغفوات، وساعة العسر والسراب، بوجهٍ آسف، وبسمة كتبسّم المغضَب، مسبحتُه الكهرمانية مُنفرطة الحبات، وثيابه متربة، يبدو في حالٍ مزْرٍ سيد الأوليا، وغسّان عندَ قدميه يغسلهما ويرمقُه بطرفٍ خفيّ بين حين وحين، فيراه طائرًا محلّقًا، ليس معنا بل هناك، في الأعالي وفي منتهى الغايات ومنية الراغب المتلهف، مُغمض العينين، يتمتمُ ما يتلقّاه بحذر، ويقول «ولا تعتدوا.. ولا تعتدوا»، يفيق فينظر نحو غسّان الذي يصرف بصرَه ألّا تصيبه صائبة أو تحلّ عليه قارعة من عذابٍ أليم، فيحنّوا عليه سيّد الأوليا بيُمناه بعدما سقطت منها الحبّاتُ الكهرمانية، ويعيدُ عليه ما تلقى راغبًا أن يكرّر غسّان «ولا تعتدوا.. ولا تعتدوا» فيستعذبُ غسان القولَ ويردّد.. ثمّ.. ترنّ في خاطره الأناشيد، تجلجل، تُصلصل، تُدندن، تدورُ به وتحطّ، وتأخذ به وترد، فيجيب بغير قصد، «لا تعتدوا»، غير أنّها خرجت بلحن الأناشيد.

****

- ٣ -

يومَها، اجتمع مشايخنا في ناحية آل عريمي..

غشيتْهُم السّكينة، وحفّتهم الملائكةُ ونسائمُ الرّحمات، وأخذتهم سِنةٌ من النوم..

كان الفتى وهران إذّاك على أعتاب عامِه الثّالث، يجلس في حِجر أبيه غسان، ينصت للمجلس، ويتلوّى في الحِجر الدّافئ، مشاكسًا كما يتلوّى السّمك في القفف!

وهران هو المفضّلُ في أعين غسّان، ودعني أحدّثك قليلًا عن اللولاد في عين غسان، ولم كان وهران هو المفضّلَ بين إخوته.

كان بكري غسّان هو رحمن، عيناه ثُقبان تذكّراه بأعين السوداء، الجارية

الذليلة، الموكلة بجلب الماءِ وحلب الشّاء ونتف شعر العان. وكانت سُمرته دخيلةً على بيت آل وهران، وكذا على سِجلّ غسان النّاصع الألمع، وكان وجودُه خطأ أفسدَ البهجة المتوقعة للبكري المنتظر، البكري الذي أتى قبلَ الميعاد، قبلَ الزواج حتّى، أو الانتواء له، وكما أن الفرص لها ميعادٌ محدود، إنْ خالفته متقدّمًا أو متأخرًا؛ أفسدتها، أفسدَ مقدم رحمن فرحة غسان، وأربكه، عاجلَه بالأبوّة وهو بالكاد يقول للحياة هيتَ لكِ!

تزوّج غسان من صبيّةٍ ناهدة، لم يُعرف لها سمتٌ ولا اسمٌ يُذكَر، إذْ كانت تُنادَى بين الناس في نواحي أرض العرب أجْمع بالمصونة، وقد كانت بحقّ مَصُونة.

أحبَّها غسان حبًّا جمًّا وأفرط، وأنجبَ منها على الترتيب مُهرة ووهران وفُتنة.. تلك التي كان دفقُ مياهها مباغتًا، حملتها المصونةُ بمشقّة، ووهنًا على وهن على وهن.. ركلت فرجَ أمّها فشقّته.. وأخذت من نورِ عينيها فأطفأته.. وأعلنتْ فُتنة بمقدمها أنّ الكتاب الذي كُتبت فيه حياةُ زوجة غسان المصونة؛ قد انتهتْ صفحاتُه!

ولما كان غسانُ يتحاشى رحمن، كنّاه الناسُ بأبي مُهرة، وكان عارًا في أرض العرب أنْ يحمل الرّجل بكُنيته اسمُ أنثى، وكان عيبًا في الفحولة ونقص، فتحاشى غسان ذكرَها بين الناس وظهورها، وحرصَ على أن يظلّ غسان وفقط.. غسان آل وهراني.

وبالمقدم المبارك لوهران، انفرجتْ أساريرُ غسّان وتهلّل وجهُه واستبشر، وخرّ راكعًا وكبر، وقال الآنَ الآن، أبو وهران آل وهراني يا أرض العرب أنا، تلك كُنيتي، وذاك ابني، فحلٌ من فحل من فحْل.

لكنّ الفتى كان طوعَ أمّه، شرِب طباعَها مع لبنها فـ لانَ بها، وعزّ ذلك على غسان، أن يرى بكريّه- وكان غسان يراهِ بحقّ بكريه بين اللولاد- مرهفًا وخفيفًا، طريّ الكفّ ضعيف البأس هزيلًا شاحبًا، لا لونَ له ولا صوتَ ولا وجهة، يحطّ كما يحطّ إخوته وينهض مثلما نهضوا، نقيّ القلب في مؤضع الحمق والسّذاجة، فأعظم غسان ذاك وكرهه، فنزعه من أحضان أمه باكرًا، وحرَمَه ملاعبَ الصّبيان ومصارعات الديكة وسباقات القفز والقمار والتسالي، وألبسه ثيابَ الكِبار التي لم تناسبه، وألقى به في مضاميرِ الفروسية والمبارزة مبكرًا.. ومبكرًا أجلسه مجالسَ مشايخ أرض العرب الكرام.

وفي مجلسنا الذي نحنُ فيه، في نواحي آل عريمي، ووهران ذو السنون الثلاثة، متقوسًا في حِجر أبيه تارة، متلوّيًا تارة، مُتململًا من ثقل الكلام، شاكيًا ضمورَ عقله، متحفّزًا للحظة يثبُ فيها للّعب والمزاح والضّحك، إذْ باغتته كفُّ أبيه الرادعة المانعة لأيّ مخطّط يلهو فيه ويلعب، فأسرّها الفتى في نفسِه ولم يبْدِها، وكتمَ أنينه ودموعه، وحنق أشدّ الحنق على أبيه وعلى المشايخ

وعلى المجالس والأيام والدنيا، حتّى على ملاعب الصّبيان ومصارعات الديكة وسباقات القفز والقمار والتّسالي، كره كلّ شيء، وكتمَ كرهَه وغيظه وأنينه، ولم ينظرْ لأبيه ولا للمشايخ الذين أشفقوا عليه، بل اعتصرَ عينيه حتى كادَ يفقؤها مانعًا دموعَه أن تسحّ!

كبرَ الفتى قبلَ الأوان، ونضجَ قبلَ الأوان، وتعدّدتِ المواقف والمشاهد التي كتم فيها غيظه ورفضَه ودموعه، حتّى طفح، وضجر، وانهارَ وانكسر، فأخذته الحميةُ لحظة طيش قاربت فجرَ يومٍ كئيب- لم ينْسَه غسان حتّى يومنا هذا- وقفزَ من نافذة الدار متسنّدًا نخلة موازية، ولاذ بالفرار.

ولم يمضِ الضحى إلّا والفتى ذو السّنين الخمس، ومشاعر الخمسين، يعودُ محمولًا عَلى أكتاف الرجال، قد أصابته الشمسُ فأغشي عليه، ولما أفاقَ ورأى أنه عاد إلى نقطة المبتدى، ولمَح أعين أبيه، وجدّه غير غاضب، وغير راضٍ.

تحاشاه غسانُ وأهمله، بعدما أحسّ بطعنة الغدر، وبذرة الجحود ونكران العرفان، وما كان في عينيْه إلّا طيفُ السؤال: لِم؟ إذًا هو الجزاء؟ ألأنّني رغبت فيك رجلًا وعكازًا؟! ما الجزاء.. الهرب؟ الفرار؟ ووصمُ العار في الجبين الناصع؟ وطمس الأنف العزيز بوحل الخزي والتواري عن الأعين! لله درّ رجالٍ حملوكَ لي ولم يُفشوا بين الناس صنيعَك، ستروا أباك الذي كشفت سترَه وعورته بينَ الملأ يا بني الصغير، رُح، لا لك ولا عليك، كأنّ شيئًا لم يكن.. كأنّك شيء لم يكنْ!

ومِن يومها، ومِن بعدها، ظلّ غسّان يردّد، بعدما انغرستْ في جوفه بذرةُ ونمتْ وترعرعت وآتتْ أكلها وثمارها، فظلّ يردّد.. ويردّد:

لا المال يبقى، ولا في اللولاد خير..

لا المال يبقى، ولا في اللولاد خير!

*** * ***

ثمّ ماذا..؟

ثمّ إنّ الليل تضافرَ مع شيخ غسان وقابوس بن قابوس مطموسِ النّسب..

العِشاء تقول اللهُ أكبر.. الدّواسر في مساجدهم ركّعًا وسجّدًا.. سيوفهم في الأغماد مُخمَدة.. أرواحُهم خاشعة.. نسوتُهم متستّرة.. أطفالهم لاهية.. في غرفاتٍ عالية.. وبين البيوت والبيوت كانت بوّابةُ البيت العتيق تئزّ أزيزًا معَ انفتاحها وانغلاقها.. إنّه شيخ طلال الدوسري، يتمتم دعاءَ الوضوء، ويستبقُ إزاره ونعليه ناحية المسجد ليلحقَ الجماعة بالركعة الأخيرة.

وتحلّق الهجّامة ومَن تَبع شيخ غسان من قومه حولَ المسجد. كان طلال في استهلال الشارع الموصّل للمسجد، والليلُ كليلِ الغريب بلا قمر. نظرَ قابوس

بن قابوس مطموس النّسب بعينيه الحمراوين في أعينِ شيخ غسان آمرًا بالإذْن، ونالَ ما ابتغى، صاح بالهجامة ومن تبع شيخ غسان مِن قومه وهُم نفرٌ قليل، إذْ خالفه الرّأي رهطٌ كثير فتخلّفوا، أشار قابوس لعصبته فتشكّلوا.. أشهرَ سيفَه فحملوا عروقَ الأخشاب وتأهّبوا.. أشار للوهرانيّين فتحلقوا من خلفِهم وترقّبوا، ثمّ أسقط سيفَه فتناطح القومُ بعروق الأخشاب وناصبات المسجد، فارتجفت وارتجفتْ معها سيقان المصلين، وتسمّر طلال الدوسري، الآتي من بعيد، خانته عيناه وقدماه وشفتاه، فما استطاعَ مُضيًّا ولا هربًا، ونظر، بل قل.. بَحْلَق!

الهجّامة يُعيدون الكرّة، ثمّ يُعيدون الكرّة، ثمّ يُعيدون الكرّة..

شيخ غسان مِن بعيد يرقبُ الموقف، يداعبُه شعورٌ بهيج، يدغدغه، يصيبُه بالنّشوة والسّكر.. ينسجُ في مخيّلته أنشودةً جديدة، ألحانُها تتناقلها الرّبابات والألسنة جيلًا بعد جيل.

تحكي عن شيخ عزيز أبيّ عنيد..

تحكي عن مُسخّر الأشباح..

تحكي عن موقعة المسجد البعيد..

المصلّون الذين خرّ عليهم السقفُ من فوقهم..

ماتَ مَن مات فيهم، ومَن عاش تلقّفته سيوفُ الهجامة ومَن تَبِع شيخ غسان من قومه..

تحكي عن طلال الدوسري شيخ القبيلة المغضوبِ عليها..

تحكي عنِ الصّيحة التي صدرتْ ممّن رآه متسمّرًا في موقف قدميه ودلّ عليه..

كيف هرول! كيف أنّ ضربات قلبه كانت تَشي بموضعِه إذا اختبأ؟ كيف اقتحم بيته شيخ آل وهران والأشباح؟ كيف استجار منهم بغرفته، واحتضنَ مصحفَه، وقال يومٌ كيومِ عثمان..

غيرَ أنّه بالَ في ثوبه، وقتله الرعبُ قبل أن تقتله سيوف آل وهران!

* * *

وفي الزّريبة الرمادية، بين مرابطِ الخيول النافقة، وتحت ستار الليل البهيم، وسط أجيج النيران المسْعورة، وولولة النسوان وصراخ الرضع والصبية.

النيرانُ تلتهمُ فلا تشبع، وتحصدُ فلا تقنع، وعسسُ ملكستان ومحاربو الدواسر كأنما مارد وانكسر القمقم.

وشيخ غسان؟ شيخ غسان يبكي بينَ أحضان فُتنة، التي انشغلت في عدّ

النجوم والضحك!

فُتنة، فما فُتنة.. وما أدراك ما فُتنة!

كان يومُ ولادتها عسيرًا، شقّت رحِم أمّها، وأخذت منها إكسير الحياة ولون العيون، شهقت أمّها شهقة سمعها مَن في السماء ومَن في الأرض إلّا من شاء الله، ثمّ شهقت شهقة أخرى فإذا الناس قيامٌ ينظرون، لا بدّ أن يموت شيء ليحيى شيء.

خرجت فُتنة من رحِم أمّها المرحومة بلا دموع، ولا صراخ، ولا مواء.. خرجت باسمةً بأعين وهّاجة تشعّ بلوْن الفرح البنفسجي، وحدقٍ كأنما بلّور، وبسمة كأنها قطعة من لطف الله!

ألقى اللهُ عليها محبةً منه، وصنعها على عينه، فما رآها قاسٍ إلّا لان، ولا قاصٍ إلّا دان، ولا مزرٍ إلّا زان!

ولعِبت بأناملِها الدقيقة النّدية بلحيةِ أبيها الباكي على المرحومة، أبوها الذي أسرّ في نفسه قطعةً صغيرة من النّقمة والغضب، فلمّا لامسته صفَا وَرَقّ، وقال سبحانَ الدّائم الذي لا يقطع إلّا بوصْل، ولا يأخذ إلّا بعطاء.

كانت زينةَ الصّبايا وقلبَ أبيها وخلدَه ولُبّه، آية في أرض العرب، ونبع صفا في ديار آل غسان.

روَى مَن روى عنْ حكايتها أنّها في سنّها السابعة؛ نهِدت!

وذاتَ يومٍ خرجت معَ أختها وأخويها نحوَ عرسٍ في دارِ جارٍ قريب، على مقربة من الباديةِ، اخترقَ أخواها صفوفَ الرّجال، وصعدتْ هي معَ أختها نحو طابق النسوة، وأخذ العرس مجراه الطّبيعي وعرفَه السّائد في أرض العرب.. طعامٌ فشراب فَطَرب، عملت طبول الكاسر والرحماني عملَها، فأخذتِ الأجواءُ في الصّهللة والبهجة.. بَرعى وهبوت في صفوف الرجال، ودِجني بين النّسوة والصبايا، كانت مُهرة كوديةَ الزّار كما يُقال؛ فشعلَلت ودقدقتْ وأرهقت، وكان وهران ورحمن سيدَا قومهما في ساحاتِ البرعى والهبوت؛ فحملوا الخناجر باليمين وباليسار تعلّقوا بالأغماد حول الخصور، وتهادوا وتمادوا ورفّعوا وخفّضوا والتفّوا واستداروا والصياحُ بين الجميع «عزّ الله ولاد غسان.. أرحبوو».

وفُتنة، فما فُتنة.. وما أدراك ما فُتنة!

كأنّما طيرٌ غريق، مُنكمشة منطويةٌ خجلى، متقوقعة على حالها، وقفتْ قربَ الدريشة ونسيم اللّيل العفيّ يداعبُ سنبلة شعرها الغجري، تصفّق بأصابعها الدقيقة الندية، وترقب هيجان أختها مُهرة وتُسِرّ في نفسها إعجابًا خفيًّا وشيئًا من فخر.

لم يحدثْ بين النّسوان شيء خارجٌ عن العادة، فهنّ كالعادة- وخصوصًا في الأفراح- يتكايدْن، يغمزنَ ويلمزْن، يقارنّ أعضاءً ويمصمصنّ الشفايف عجًّا وغيظًا.. والأعين البَنفسجية كانت تستحقّ الحسد، والنّهد الباكر كان جديرًا بالإطراء، والاستدارات والمنحنيات التي عرفت طريقَها لذاتِ الأعوام السبع كانت حديثَ مجلس النساء قبل وأثناء وبعد العرس، ثمّ إنّ شيئًا آخر لم يحدث، أقصدُ شيئًا ذا أهمية أو يجبُ ذكره، إلّا إن كنت ترى أن النداهة وتخاريفَ النّسوان شيء يستحقّ الإشارة له، فبعضُ النسوة اللاتي حضرن العرس ورأت فُتنة في ليلتها قالت إنّ فُتنة كانت دائمةَ التلفّت حولها، ودائمةَ النظر نحو الدريشة وكأنّ أحدًا يناديها، كانت مشتّتة الذهن، باهتةَ الحضور كأنما طيف!

ثمّ ماذا؟ ثمّ لا شيء، عادَ الإخوة بعدَ ليلتهم، ناموا واستيقظوا في صحّة وعافية كلّ في فلكه يسبَح، وفُتنة كأنما سقطَ منها في ليلة العرس شيء!

معَ الأيام أصبحت خفيفة، زادَ الشّرود، حلّ الشّحوب محلَّ الورود حتى غدت ميتًا تسير بين الأحياء، تضحكُ حتّى البكاء، وتبكي حتّى يحنّ لها الجمادُ والعباد، زارها الحكماء والأطباء والرّاقون والسّحرة، واحتارَ غسّان في أمرها حتّى هجره، وقال نطفة معوجة أو زرع شيطانٍ نمَا وترعرعَ في الوادي الخصب، أو لعلّها مشيئة الرّب، فأهملها، وتناساها حتى نسيها، وقال ما رزقني اللهُ بالولد، نعم.. قالها في نفسِه ولم يبْدِها لأحد، لكنّ الأفعالَ كانت تشي بكلّ مكنون مُسْتتر.

واهتاجتْ فُتنة ذاتَ ليلة وهي ابنةُ أحدَ عشَر وحمت، ولم تعرفْ ما أصابها، ولم تكن تعرف كيفَ تنطق بما يعبر عمّا يعتملُ في وجدانها ويدور، لكنّها توارت عن أبيها وأخويها والخدم، حتّى أتتها مُهرة فوجدتْها في معْزلها ترتعد، فباعدتْ بين ساقيها، ونظرت لما بين فخذيها، وزمّت في أسفٍ شفتيْها، واحتضنتها بعطفٍ وقالت:

جرحٌ تحت السرج مداري..

لا الخيلُ يشكي ولا الخيال داري!

كانت فُتنة هي النّجمة البيضاء في اللّيلة الظلماء، كانت على قدر غيابها عن الكون والأحداث ومستجدّات مَن حولها من الناس، كانت أشدّهم فهمًا لما يشعرون به، وكانت أكثرَهم دفئًا، وأحنّهم قلبًا، وأكثرهم عناقًا للجميع، فكان يرتمي في حضنها كلّ مَن أصابه همّ أو حلّت به ضائقةٌ من آل بيتها، فيجدُ بين ذراعيها العذبتين رائحةَ أمّه المرحومة، وعينانِ هما نافذة على جنّة الرب، وبسمة هي الدّنيا وما فيها، وكلمة تخرج عفوية من غير قصد، تجرّ وراءها ضحكًا، ومعَ الضّحك هدوء، ومعَ الهدوء سكينة وأمان، يُنسى الزمان في حضن فُتنة ويُنسى الناسُ والأحداث والمشكلات.

فُتنة هي الرحمة..

فُتنة هي السّكينة..

فُتنة هي الملاذُ والخلاص والأمان.

لكنّ شيخ غسان، في أوْج فزعِه وارتعاده خوفًا، تركَ أحضانَ فُتنة، بين مرابط الخيل النافقة، في الزّريبة الرمادية البائدة، في نواحي آل وهران الخربة، من أرض العرب المكتظة بعسسِ ملكستان، تحتَ ستار الليل البهيم المظلم.. وتسلّى بالأناشيد.

****

1- تُنسب الأبيات لهند بنت النعمان بن بشير.

2- تنسب الأبيات للشاعر العباسي أبو الشيص الخزاعي.

الفصلُ الثّالث

«التّغريبة»

هل يُجنّ ؟ - أنت قلت-

الآنَ فاسمع..

لا مقدّمات.. لا تمهيد.. لا ترقيم، ولا تبويب، ولا ترتيب، ولا تنميق، ولا تنغيم، ولا قوافي، غيرَ أنّ الكَلِم فاضَ وانهمر، والعبرات اشرأبّت حتى سالت من الحروف والنّقاط.

الآنَ فاسمع..

إنّه هناك، فانظرْ إليه، هل تراه؟ كيف يتمدّد الجسد اليافع على المحمل أمامه عاريًا بدماءٍ متجلّطة تنتظر أن تُغتسل، أوصال مقطّعة، وأحشاء مفتتة وكأنها أحشاء عاشقٍ!

الآنَ فانظر.. إليه فانظر.. كيف وكأنّما انشطرت نفسُه إلى نفسيْن، وشخصه إلى شخصين، عنِ اليمين وعن الشّمال.. يرقب الجسدَ اليافع المتمدّد على المحمل الصاقع مَن أمامه.. جسد مَن؟ جسد وهران.

ماذا؟ أوَلم أقلْ لك؟ لا بدّ أنّني نسيت، فاغفر لي.

نعم، لقد انفسختْ أوصالُ الفتى وتفتّتت أحشاؤه في موقعة المسجد، وقف كلبنة في حائط سدّ منيعٍ يذبّ عن أبيه، غارتْ عليه عُصبة من النّاجين القاسمين بالله غير حانثَين لا يرحمون ذي وهرانيةً باسمه، فكيف بابنِ كبيرهم.

في خلفيّة المشهد، خلفَ ستار الغرفة التي تخصّصت للغُسل والتكفين، تسمع صوت مُهرة تنوحُ وتنوء بأثقال العالم على كتفيها الهشّتين، تزداد وهنًا على وهن، تحمل حزنًا، وتتمخض ألمًا، وتضع جزعًا وشرخًا في جدران نفسها التي ارتجّت وآلتْ للسقوط بعد بكّار.

يا ويلَكَ يا غسان من الدّيّان، يا ويلك يا غسان من الميزان..

تصرخُ بالكلمات عبثًا غيرَ عابثة، إنّها ابنة غسان، إنها مُهرة التي لا تنطق إلّا حكمًا، يسمع صوتَها، وكلماتُها تطعنُ فيه من الوراء وتنغز، وابنه الممدّد في المحمل الصاقع يطعن فيه من الأمام وينغز، ويتّكئ غسان بينَ كليْهما على صوتي نفسِه التي انقسمت إلى نَفسين عن اليمين وعن الشمال!

يعتصرُ الخرقة.. يذكر اسمَ الله.. يحبس دمعًا.. يكتم ألمًا.. ويهمّ بتغسيل وهران. آاه يا وهران ومائة آاه.. رحمةً بأبيك الكهل.. رحمةً بالشّيبة يا بني..

طعنتني سابقًا وأعدتَها الآن وكأنك لم تلحظ ألمي في الأولى، وكأنّك لم تسمع أنيني، لم تسمعْ زخّات دمعي الساقط على المحمل الصّاقع يومَها والآن. آاهٍ يا وهران ومائة آاه!

الآنَ فانظر..

الآن..

لا تأخذك السِّنة والغفلة، فتلك لحظةٌ لم تمرّ مرورًا كريمًا، تلك التي غلبَ الشمال فيها اليمين، وعلَا صوتُ الأناشيد في أذنيه، وارتجّت أوصالُه واتّسعت حدقتاه وخرجَ لا ينوي إلّا ثأرًا، وقال دمٌ بدم، وقال يا آل وهران.. فما آلُ وهران؟! وجدَ نفسه وحيدًا وحيدًا.. وهبّت ريحٌ عاصف عصفتْ بالكون إلّاه، وغاصَ في جوفها وتاه.. ثمّ ناداه المنادي وكانت مُهرة: بالله يكفي يا داعيَ الخراب، بالله يكفي من دِما لحباب!

وانطلقت تتمتمُ جُملتها بلا كلل، بعدما نزعتْ حجاب الحداد وانطلقت في نواحي أرض العرب، لا يقوى على ردْعها قويّ، ولا على إسكاتها مغْوار، ثمّ إنها لم تُر في الأرض بعدها.

وانطلق شيخ غسان وتبعَه مِن قومه تسعةُ رهط أو يزيد، كتسعةِ رهط من ثمود، يفسدون في الأرض ولا يصلحون!

انطلقوا يحملونَ على أكتافهم نعشَ الفتى الملفوف في كفنِه الأبيض، ويحملون السيوف رافعين لواءَ الحرب والقصاص لوهران وآل وهران.

طافوا به، وطافوا، حتّى قال في مرقدِه التي لا يسمعه فيها إنسٌ ولا جان، قدّموني وارحلوا!

وفي القبر، غلبتِ الدّموع أعين شيخ غسان، وكفكفَ دمعَه بكره رحمن، لكنه نظر في عينيه نظرةً أوجعته فتحاشاه، ونفضَ كفّه ووارَاهُ ظهرَه وخرج من القبر ينفضُ التراب وينشد الأناشيد ويشهرُ السّيف في كبد السماء. غسان ينوي شرًّا.. غسان يمرّ بضريح شيخ الأوليا ولا يرمي السّلام. غسان يتّجه شرقًا.. إلى أين؟ حيث البركةُ الآسنة، التي لا يجفّ ينبوعها المجهول ولا ينضب. يُلقي بثقله لعذوبة الماء فيتعكّر، وبعقلِه في غيهب النّسيان فيتذكر، وبروحه في قوالب الأزمان فتتحجّر. غسان ينوي شرًّا.. غسان يبغي ثأرًا.. أظلمت عليه الظلمات وقامت السّاعة وطاف جسدُه فوق صفحة البركة هامدًا كلوحٍ عتيد.

عاشَ غسان وإنّما.. مات بموت وهران شيء ما!

وعلى الضّفة الأخرى من أرض العرب، تشبّثْ بالبساط وطرْ معي.

والآنَ فاسمع، وانظر، وانتبه..

* * *

كنّا هنا سابقًا، ألَا تذكر؟ دعْ عنك الزرابي والنمارق والفُرُش، ودعك من الصواني والأواني والعيش واللّحم والشاهي والكُهوة.. إنّهم مشايخنا، مشايخ أرض العرب الكرام. نعلم أنك يضيقُ صدرك بما يقولون، ولكنْ مهلًا.. كنْ صبورًا، كنْ طويلَ النّفسِ ذا رباطة جأشٍ وسياسة، أنت بالتأكيد تميّزهم، ذاك سلمان البوسعيدي نعم، وذا شيخ سالم العريمي حيّا الله، وهذا شيخ مأمون الجبّالي حيّ ومرحبا، ومن أيكة الدواسر طلّ غصن جديد، أطول عودًا، وأدْهى فِكرًا.. إنّه وائل ولدُ المرحوم سالم الدوسري، بايعوه الناس وحمّلوه اللواء، وقالوا وقال من قبلهم «دِفوني دِفوني.. سيروا ودِلّوني» زعِم الشّورى وتفرّد بالقرار، وإن كان المرحوم وهران ثعلبًا في الميدان فذَا ثعلبٌ في كلّ مكان. انظر تلاقيه.. صغير المشايخ، لحيته بعدَها زغب، لكنه فطحل، صنديد، وفحلٌ عزّ الله بُه الدواسر.

الآنَ فاسمع، وانظر، وانتبه..

كانت الحلقةُ مَهيبة، كلّلها المشايخ الأجلّاءُ ودُرّتهم وائل بن سالم الدوسري، وفي المنتصف كان ذا اللّكنة الإفرنجية الكالحة المائعة، والأعين الزرقاء اللامعة، والعباءة الحريرية الفاقعة.. إنه شهبندر التّجار، سرّ الأسرار، وخازندار السلطان المُلكستاني العظيم، وحلقة الاتصال بين عالم أرض العرب المتقوقع بين الرمالِ وغضبة الجبال وبينَ العالم الوسيع والأرجاء المعمورة، ناداه وائل الدّوسري بنورسٍ يحفظُ الطريق عنْ ظهر قلب، ألصق بين مخلبيْه لفافة تحوي جملة واحدة «خَزانة السلطان مهدّدة»، فأتى الشّهبندر ينكفئ على وجهه يمْحو أثرَ الطريق وعفرة الرمال وقسوة الشّمس ومغبّة السّلطان وسبّته، ثمّ ها هو الآنَ في حضرة مجلسنا الموقر لينظر ما الخبر، لم يطعم ولم شرب ولم يقرب النّساء- على غير عادته-، عبوسٌ مضطرب، يتلاشى التحيات والسّلام والتصاق الأنوف، ينظر لوائل متسائلًا، فيجده يبتسم بهدوء كأنما على قلبه نسيم ينعشُه، وينظرُ إليه وائل فيجدُه يطهَى في ثياب الأكابر والمخانيث، يتفصّد عرقًا من كلّ إنشٍ فيه ويستوي. والمشايخ؟ المشايخ يلتهمون لحمَ الظبي ويرتشفون الشّأهي بالهيل.. لا هم لهم في الدّنيا إلّا الطّعام والكُهوة واللحية المخضّبة بالحناء والعرجون الموقر وقعه على أرض العرب، النّعل الأبيض مقدّس، والدّشداشة الواسعة فضيلة، أبيضُها حَسن، وداكنها جاذبٌ ومثير، والكمّة والشّال والعقال أعزّ من العيال، بهم تكتملُ الهيئة الموقرة البديعة، ويخرج الدعاء من ثنايا القلب خاشعًا «اللهم كما حسّنت خَلقي فحسّن خُلقي».. والشهبندر ينتظر.

- بالله عليك يا ريّسنا كيف مولانا؟ حقّ إنه با يرتحل مع قافلة الحجيج؟!

يتساءل كبيرُ آل عريمي، فيشيح عنه الشّهبندر بتقزّز وتأفّف من ريح السواك واللحم الشائك بينَ الأسنان، ويهزّ رأسَه نافيًا أو مجيبًا، لا يهمّ؛ فهو لم يستمع

لما قيل، هو منشغل بما سيقال، تدورُ تروسُ عقله تطحنُ الأفكار والخواطر كما تدورُ الماكينات التي استحدثتها دول أوروبة والإفرنج، إنّهم كفّار- يقول مشايخنا- يعلمون أنّ مصيرهم النار، وأنّ الدنيا هي المتعة الوحيدة، فتفنّنوا في اختراع ما يسلّي أيامهم ويعوّضهم عن الجنة، ويخفّف عنهم حرّ النار والعياذُ بالله، الله أعلم، هم قالوا، فما علينا.

نطقَ الشّهبندر السؤالَ بطرفِ عينيه، وخناثة في حركة لسانه، ومخارج حروفه:

- شيخ وائل، يقدّم سلطان مُلكستان تعازيه في وفاةِ أبيك سالم وعمّك طلال، ويقدم تهانيه لجلوسِكم على قمّة قبيلة عريقةٍ مثل قبيلة الدوسري، ويتساءل عن معنى مضمون رسالتكم الأخيرة!

كانتْ مقدّمة مُستهجنة وغريبة، مئاتُ المشايخ ماتت وعاشت ولم يهنئها سلطان ولا شهبندر، كأنّ في الأمر شيئًا، ربّما سرّ، ربّما فطنة، ولمع نجم في أعين شيخ وائل وهو يبتسم ويجيب:

- حيّا اللهُ السلطانَ وحيّاك يا «باشا»، نقبل التهاني ولا نقبل العزاء.. مات أبي سالم غرّ، ورجّال، تشهدُ الميادين والعيون، والعدا قبل الحبايب بأنّه كان عزّ الرجال. وعمي طلال مات غدر وخديعة، مات وما مات بعد القصاص والثأر.. القصاص اللي هو حق لنا بكلّ النّواحي والنصوص، قانون الدين، وقانون العرف، وقانون الغابة بعد.

وانتظرَ وائل ليرى وقعَ كلماته على المشايخ الكهول وعلى الشهبندر الذي ضاق بالجميع ذرعًا ولم يكنْ ليأتي لوْلا مخافةُ السّلطان الذي يخشى على خزائنه، وقال:

- شهبندر التّجار الكريم، لعلّك با تعرف وبعد مولانا السلطان على علم بأن الجبّاية المفروضة على أرض العرب ليستْ بالقليل الذي يُهمَل أثره، ولعله كما الجميع يعرف بأنّها تشكّل نصيب الأسد من رصيد خزاين مولانا من مال وبضاعة.

- ماذا تريد يا شيخ وائل؟!

قالها الشّهبندر بحذر، فدلفَ وائل بالحديث مُلقيًا بالسياسة عرضَ الحائط.. هو لا مفرّ مثل أبيه، ضيقُ الصّدر قصيرُ النّفس، رغم أنّه ذو بصيرة وفطنة، وضعت بيديه على عورات أبيه وعمّه، فعزِم قبل تولّيه أمرَ الناس على اجتنابها.. قال:

- إنّ الحربَ التي جرّها علينا شيخُ غسان آل وهراني تجلبُ الخراب جلبًا على الصغير والكبير، والقريب والغريب، وأرض العرب وملكستان بعد. شيخ غسان فلت عيارُه، وانخربْ داره، وفات بكره وصغاره، وحمل سيفين بإيدينه، وقال

للمعارك هيت لك! ماتَ ابنه، ومات عويل بنتِه بعد، ومات أبوي وعمّي، والبيوت بالقبيلتين ما بين شهيد وفقيد، واللّي با يضحك ويبكي ولا إله إلّا الله يا ناس، ولاد الخال يونس وولاد الشيخ حمّاد ماتوا كلّهم في دوّامات المعارك وانخرب البستان اللي اشتعل به فتيل الفتنة وانجرّ به الخراب.. والأرض بارتْ وحارت مَن يرعى ومَن يفلح! وما عاد شي محصول ناكله غير ما في شي نعطيه جباية للسلطان.. وربي شاهد لا تمرّدنا على القانون ولا خرجنا.. بغينا نفلح أرضنَا ونرسل ما علينا لمولانا وما مانعنا إلّا غسان اللي طالق علينا سلاحه ليل ونهار.. وآخر شي يدكّ المسجد فوق روسنا بيد المطارید وولاد الزنا.. بخّسه الله، ما يستحي اللّي واضع كفّه بكفّ قابوس بن قابوس مجهول النّسب! يا عار آل وهران سنين وسنين.

كان المشايخ الأجلّاُء يتوارون بأنظارهم من شين ما سمعوا وشهدوا، والشهبندر كأنه على علم، فلا تفاجَأ ولا رفّت له عين، وقال بهدوء غريب..

- لم تجبْ يا شيخ وائل.. قل لي ماذا تريد؟!

- أريد المدد.

تمهّل قليلًا ثمّ أردف..

- أريدُ مقاتلين من عسسِ مولانا بملكستان، بالبارود والكرابيلة، وأصابع الديناميت.. أريد غسلَ أرَض العرب من بؤرة الضّوضاء وملجأ الأوباش والمطارید.

كان يرقبُ الأعين أثناء حديثه فرآها جاحظةً مضطربة، أصحابها وجلون مشفقون، فقال زاعقًا:

- بايقاتلنا باولاد الزواني وحثالة الناس والحين با تشفقون عليه وعلى من معه! الحقّ حقّ والبادي أظلم، وما غدرنا به كيف ما غدر والتفّ. لجأنا للّي فوق الجميع، وانتوا يا مشايخنا.. وينكم من قوله «فقاتلوا التي تبغي»؟، عادَ اللّي ما يشارك في حرب الميزان ما له كرامة ولا عيش بينَ الدّواسر، ولا تجارة ولا زواج ولا يحزنون.. وبخّس الله الجبان اللي عاشرَ المشيب من دهور وعاده خايف من الموت وما زهد في الأيام!

كان الثعلبُ كنّه حطّ الطير فوق الروس راس براس، ومشايخنا كأن بيهم شيء من السكينة وتسليم الأمر، والشهبندر تدور تروس عقله وتلفّ، يفكر ويفكر وما يحصل من طول التفكير شي!

وتساءل صوتٌ مرعوش من بين الرّوس المنكمشة كأنّ البرد أطلّ عليها:

- وكيف بنكسر شوكة غسان والمطارید؟ خطّة وعقل، واللّا بنتناطح كالجاموس!

وابتسمَ وائل وكأنّ الحشفة انولجت في بادي الأمر ثمّ قال:

- حيّ الله هالحين جدّ الكلام. اسمعوا يا مشايخنا ويا شهبندر التجار وبلّغ مولانا بعد.. غسّان انفرطت عنه جماعتُه وانكسرت شوكته بإيدينه، وانحلّ الناس عنه وفرّوا منه كنه وبا وجذام.. مات الصغير وهران، وهجرتِ البكرية مهرة أرض العرب، والصغيرة فُتنة عيب أبيها وعبئه!

وتساءل متسائل:

- رحمن يا شيخ وائل، غفلت عنه وهو رجّال أبوه؟!

فابتسمَ وائل ولم ينظرْ للسائل، بل قام واختفى، ثمّ عاد يجرّ من خلفه ظلال رحمن المطأطئ رأسَه بين أعين المشايخ والشهبندر المتفحّصة المتأملة، تكاثرت النظرات عليه كما تكاثرت من قبل السّهام في المعركة، لكنّه اكتفى وأصابه الصّجر، ومن طول عشرته بأبيه فطِن من نظرة القبر التي لسعتْ داخله معنى أليم، فاستوى عندَه القريب بالغريب، وقدّم الأنا على الآخرين، وخرج ينشد حالًا غير حال:

- رحمن بن غسان آل وهران، بكر أرض العرب وعبد الحق وسادن الميزان، لبّى النداء كما لبيته بعد، وقال عهد الآباء ووزرهم ما للأبناء فيه ذنب.

اعرفْ ما تفكر فيه، ولكنْ.. رحم اللهُ نفوسًا أفنتْ عمرها مُضطهدة، مكروهةً مِن غير ذنب ولا إثم، وكأنّما نقش بين عينيه «آثم»، والنّفس تميل لمَن لها يلين، والرّوح تهوى مَن يجبر كسرها، والأيامُ تحْلو بالوجوه الباشّة والأجنحة المنخفضة.. وكان ما كان؛ فانظرْ واعتبر.

* * *

أنتَ لم ترَ غسان بعدَ موقعة المسجد؟ لا؛ حيث الحفلُ المهيب الذي أُقامه فورَ عودته وقبل علمِه بمقتل ابنه وهران، تلك الحفلُ التي كانت قد أُعِدّ لها حتى قبل انطلاقة غسان والمطاريد، كيفَ أتوا بالمطربين والمنشِدين كالبضائع لتسليةِ الناس المنتظرة، وكيف أنّ المنشد المعنيّ كان مقيّدًا ومكبّلًا ومجهّزًا لاستقبالِ غسّان والأشباح، والقيثارات والطبول مصفوفةٌ من حوله، متأهّبة لتسجيل اللّحظة وتأريخها.

بالسّوط تكتب الأناشيد، وبالمال تكتب الأناشيد..

جنّ غسان واستعرَ وخفّ عقلُه وطار كما يطير الدخان..

يضربُ فتعلو الأناشيد، يصرخُ فتعلو الأناشيد، يبكي المغنّون والمنشدون والعازفون والكورال والآلات، يبكي حتّى المتجمهرون، ويشفق الجميعُ على الجميع، وغسّان؟ غسان يحتلب أنشودةً جديدة، أنشودة تحاكي مجدًا مخلّدًا، أنشودة تطفئ شهوةً في قرارة نفسه، وتخمد لهيب أرضِ العرب، أنشودة تتناقلُها الألسنة، وتتلقّفها الأجيال مع الأيام والدهور.

جنّ غسان واسْتعر، وخفّ عقله وطار، وسقطَ بين قافية ولحنٍ فأغوته الأناشيد.

***

والآن، لا مزيدَ من التّنقل والأسفار، لا مزيدَ من التّشتت والتّيه، إني أراك ملمًّا بما جرى، وعلى الأرض الصلبة قد وقفت، فانظرْ معي؛ فلعلّنا نعتبر.

حدثَ ما حدث، وما توقّعته وانتظرته، وبعدما خابَ سعيُ غسان في لمّ شتات قبيلته وآله وذويه، وبعدما نجحَ وائل بن سالم الدوسري في إمالةِ مولانا والشهبندر ومشايخ العرب الكرام.. جاءَ مددُ مولانا لوائل المدعوم بنصيحة الشهبندر، وسار بآل الدواسر والعسس الملكستاني بالسّيوف والدروع والمتاريس وأصابع الديناميت والبارود والكرابيل تحتَ قنديل رحمن بن غسان آل وهراني.

وفي جُنح الظلام، في ليلةٍ حجب الغمامُ فيها وجهَ القمر الفضولي، حملوا المشاعل وأغاروا على صوتِ وائل باغي النّصر واسترداد المنزلة، وعملوا في ناحية آل وهران ما علموا، وأنت تعلم ما عملوا؛ أحرقوا الحقول والزرايب والخيام والبيوت والدكاكين، وهجموا على ديار غسان الذي كان وحيدًا في غرفته، ولعلّه وحيد في الديار بأسْرها؛ إذْ لم يكلّم طوال اليوم أحدًا، بل قل لم يرَ طوال اليوم أحدًا!

فزعَ غسان من صوت العويل ومَناحةِ النّسوان، وحمل سيفَه في يمناه ونظر نظرة في الدريشة المطلّة على ناحية آل وهران بأسْرها، فرأى ما جنتْه يداه والأناشيد، رأى الخراب والدمار والشّحوبَ، وأنهارَ الدماء والرماد، سمعَ الأناشيد في أجيج النيران والنحيب ونهنهة الصبيان وجزع الآباء، ورأى الأنشودةَ الجديدة تطهَى مع البهائم والخيول والنوق والكلاب والقطط في جحيم الدواسر وعسس ملكستان، وتلفّت يمينًا ويسارًا، لم يرَ مهرة ولا وهران ولا رحمن، لم يرَ في صفّه إنسًا ولا جان، وقال بشيء من الحسرة «لا المال يبقى.. ولا في اللولاد خير!»

ثمّ إنّ شبحًا لاحَ له في الظلام، فتأهّب بسيفه بادئ الأمر، ثمّ رآه وقد تجلّى تحت ضوء القمر الرّحيم «فتنة» ابنته، التي نسيَها ولم تنسَه.. تبكي، وترتعد من هوْل ما رأت، فأشفق عليها ولانَ لها، واحتواها مُمتعضًا وقال لها ألّا تخاف، وكان في قرارة نفسه كأنما يقول ليتَ الذي بقى ذهب، والذّاهب قد بقي!

سحبَها من كفّها الندية وسار بها تحتَ سِتْر الظلام وعاصفة الأصوات، ورأى العسس قد حاوطوا البيتَ من كلّ مكان، فتمهّل، وتمهّل، حين سمعَ خطواتٍ لها على الآذان صدى مألوفٌ.. وترقّب ضوء القمر الرحيم فإذا به يكشفُ السّر الأليم، إنه رحمن، يمشي ومن خلفه عصبةٌ من العسس، يشير يمينًا فينطلق نيفًا، وشمالًا، فينطلق آخر، ثمّ يتهادَى في مشيته صوبَ غسّان وفتنة مباشرة،

رغمَ احتمائهم بالظّلام، كان يراهم، على ما يبدو.

وتذكّرَه غسان، وتذكّر أنّه نسيَه طوالَ الوقت، وأنّه لم يلحظْ مغيبه واختفاءه مذْ مشهد القبر، وقالَ بعدما تلاقتِ الأعين على ضوءِ القمر «يا ويل الخاين من ناسه.. أنتَ يا ابن السوداء!»، فابتسمَ رحمن باستهانة، وأشفقَ على فُتنة المستجيرة بأبيها، وقال «ما تشوفي شرّ يا بنت أبوي»، وأخرجَ من إزاره مسدّسًا محشوًّا بالبارود، تسمّر أبوه في لحظة وخطفَه البرد، وشهقت فتنةُ شهقةً كادت تَشي بهم، لكن رحمن عاجلهم بقوله «في الزريبة أمان حتى خيط النهار»، التقطَ غسان السلاحَ من ابنه، وتلاشى النّظرُ في عينيه، كان ناقمًا، وكان رحمن لأوّل مرّة لا يبالي.

تحرّك غسان وفي ذيلِه فتنة كما أشارَ عليهم رحمن ناحيةَ الزريبة الكبيرة، يتربّصونَ فيها حتى ضوء النهار، فتخمدُ نيرانُ الحملة ونيرانُ العسس، ويُشاع بين الناس أنّه قد مات أو هرب، ثمّ يقصدُ الجبلَ أو أيّ ناحية بعيدًا عن ناحية آل وهران.

وفي الزّريبة الرمادية، بينَ مرابط الخيول النافقة، وتحتَ ستار الليل البهيم، وسطَ أجيج النيران المسْعورة وولولةِ النّسوان وصراخ الرضع والصّبية.

والنّيرانُ التي تلتهمُ فلا تشبَع، وتحصدُ فلا تقنع، وعسس ملكستان ومحاربو الدواسر كأنما ماردٌ وانكسر القمقم.

وشيخ غسان الباكي بين أحضانِ فُتنة، التي انشغلتْ في عدّ النجوم والضحك!

حدثتْ جلبةٌ جديدة على مدْخل الزريبة الكبيرة، ودلفَ نَفران من الدواسر يشهرَان السيوف ويفتشَانِ في الأركان والخبايا، وكلّما اقترب المحاربان جحظتْ أعين غسان وغلظَ ريقُه، وفُتنة لأوّل مرّة مذْ جذبتها دوّامةُ النجوم والضحك؛ تنتبه!

نظرَ إليها أبوها نظرةً جامدة، وقبضَ على كفّها النّدية بعنف وغلظة أوجعتْها، وقال بنبرة تتهدّج وكأنّما سلّم الشّيخ العنيد للواقع الذي لا يرجوه في أنشودةٍ أبدًا «هك السلاح يا بنت أبوكِ..» وأشارَ على رأسها بالمسدس وأوْصاها، أو إنْ شئت فقلْ لقّنها، كيف تفرغُ البارود المحشو في رأسها قبلَ أن يقتربَ منها محارب دوسري أو عسس المخانيث.

والليلُ طويلٌ يا هذا، والانتظارُ غدّار، ما بين لحظةٍ وأخرى تعصفُ الأفكار بالعقل والقلب والرّوح فيتخبّط المرء بين ثلاثتهما ويتيهُ تيهَ موسى الذي ماتَ فيه، غسان ينظر لابنته فيبكي، وللقمرِ فيمْتعض يائسًا وكأنّه آخرُ قمر، ثمّ يغوصُ في دوّامات المشاهد ومحطاتَ العمر، ويتساءل: علاش كلّ ذا يا الوهراني؟ وقال يا فايت النّاس وسامع صوتك الكذاب يوم راحوا ناسك وبش باقيلك إلّا التراب.. وتذكر شيخ الأوليا والحلم الأخير، وتذكر أنه قد جافاه وخاصمَه، وكيف أنه لم يمرّ على الضّريح بعدَ جنازة وهران ولم يرمِ السّلام،

وبكى غسان.. بكى حين لمعتْ في عينيه صورةُ وهران وهو على المَحمَل، وكأنما فاتَه ذلك الشعور إذ كان ثملًا بنشوةِ الأناشيد، بكى حينَ جلجلت في أذنيه صرخاتُ مُهرة التي لا تنطق إلّا حِكمًا، مهرة التي أخذتْ من أبيها الرّياسة والحماقة ودَكَنَ العين، وبكى حين تبيّنَ له أنه غفل عنْ بكره رحمن طولَ حياته وليس اليوم فقط، غفلَ عنه ونبذه كأنّما مجذوم، كأنما الإثم ليس إثمك يا غسّان؟ بكى غسان.

بكى غسان ولم يتوقّف عن البكاء، بكى كالعيال والنّسوان، حين اقترب النفران اللذان جذبتْهما ظلماتُ الزريبة وطمعَاا في اكتشاف أسرارها، بكى غسان مع كلّ خطوة يخطوانها، بكى حين كانَا قابَ قوسين أو أدنى منه ومِن فُتنة، بكى حين حدثتْ جلبة بالخارج أشغلتهم عنِ التوغّل واستدارَا مسرعيْن.. ثمّ بكى حين سمعَ صوت المسدس يفرغ حشوَه.. في رأس فُتنة!!

فُتنة يا زينةَ الصبايا، فتنة يا قلبَ أبيك، فتنة يا لُبّه وخُلدَه، فتنة يا آيةً كفرَ بها أرض العرب، فُتنة يا سَكينة منْزوعة من بيت آل غسان، ويا سِكّينًا نغزَ في حشا غسان فأصابه بالشيب بغْتة، وبالبرودة بغتة، وبالحقيقة بغتة.

لا المال يبقى يا غسان.. ولا في اللولاد خير.

هجرتك مُهرة، خانَك رحمن، تركك وهران.. وها هي فُتنة آخر الراحلين.

وأنت؟ أنتَ وحيدٌ في الظلام، أشاحَ عنك القمر بضيائه مشمئزًّا، والبهائم النافقة أحسن منك حالًا، علاش تبكي.. وعلاش زاد البكى يا ابن الأكرمين؟ على اللولاد؟ واللّا الجاه والسلطان؟ واللّا الأناشيد اللّي ما حافظهم غيرك؟ وعلى من تقرأ زابورك يا داود؟!

تذييل ..

يَروي مَن روى، ومَن سمِع ومَن شهد، والربّ عالم؛ قالوا صدق واللّا الكذب، ما علينا..

حينَ أشاحَ غسان عينيه الداميتيْن من البكاء عن فُتنة المسكينة، رأى في غيهب الليلة الكئيبة التي لا نهارَ لها طفلًا تجرّه أمّه الباكية من يديه، وتجرّ معه ذيولَ السّواد ودموع الحسرة، والنيرانُ تتأجّج في عينيها وعيني طفلها، طفلها الذي انشغلَ عن الدنيا وتسلّى بأناشيد غسان فأنقذته من فجّ البكاء والدموع.

ضحكَ غسّان مما رأى حتى سقط على قفاه..

ثمّ وهو ينظرُ للقمر الذي أضاء له مرّةً أخرى، أخذ ينشدُ الأناشيد....

****

تمّت بحمد الله

٢٠٢٠-١٢-٢٢

محمد البشير

***

صدر للكاتب:

خضر ابن مداح النبي (رواية- فصلة للتوزيع والنشر)

فـ المعتقل والدنيا نهار (قصة قصيرة بمجموعة «السكابندو»- عصير الكتب للتوزيع والنشر)

بئر أبناء الرب (رواية- عصير الكتب للتوزيع والنشر)

أغنيات إلياسين/ بئر أبناء الرب II (رواية- عصير الكتب للتوزيع والنشر)

غربان الحسين/ بئر أبناء الرب III (رواية- تحت العمل حاليًا)

* * *

للتواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/Al.bashir١٩٩٨

*****